في ضيافة كتائب القذافي

قصة اختطاف فريق الجزيرة في ليبيا

أحمد فال بن الدين





الشبكة العربية للأبحاث والنشر
ARAB NETWORK FOR RESEARCH AND PUBLISHING

في ضيافة كتائب القذافي

قصة اختطاف فريق الجزيرة في ليبيا

بقلم

أحمد فال بن الدين





في ضيافة كتائب القذافي

قصة اختطاف فريق الجزيرة في ليبيا

الفهرسة أثناء النشر - إعداد الشبكة العربية للأبحاث والنشر
بن الدين، أحمد فال
في ضيافة كتائب القذافي: قصة اختطاف فريق الجزيرة في ليبيا/ أحمد فال بن الدين.
٢٥٦ ص.
ISBN 978-9953-533-82-7
١. البلدان العربية - الأحوال السياسة. ٢. بن الدين، أحمد فال - يوميات. أ. العنوان.
320

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة
عن وجهة نظر الشبكة العربية للأبحاث والنشر»

الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠١٢

لوحة الغلاف من تصميم: الفنان شجاعت علي

الشبكة العربية للأبحاث والنشر

بيروت - لبنان
هاتف: ٧٣٩٨٧٧ (١-٩٦١) - ٢٤٧٩٤٧ (٧١-٩٦١)
E-mail: info@arabiyanetwork.com

إهداء

إلى النسمة الزكية التي فاضت على مشارف أجدابيا روحا.. تحمل العدسة الكاشفة حتى لا تضيع أصوات المخنوقين سدى.. إلى الزميل الشهيد علي الجابر.. .

وإلى من قاد معركة التحرير ليخوض أحفاده معركة التحرر بعد ١٠٠ عام... إلى الشهيد عمر المختار...

وإلى من ضمّخوا جدران باب العزيزية بدمائهم الزكية كي تعود أمتهم من جديد..

ثم إلى من انتظرتا بألم وصبر عودتي، ثم كان لقاؤهما بلسما يشفي الجراح... أمي وأم ليلى..

أهدي هذا العمل.

تنويـه

كتب هذا العمل كجزء من احتفالات
شبكة الجزيرة بالعيد الخامس عشر لتأسيسها

(١)

فجأةً سمعت أقداماً تقترب من باب زنزانتي. خطوة.. خطوة! خيّل إلي أن صاحبها يقتلع حذاءه العسكري من الأرض اقتلاعاً. كأن كل خطوة تحمل وراءها آلاف القصص والاحتمالات والعذابات. كل خطوة تبعدني آلاف السنوات الضوئية عن هذا العالم الذي ألفته وعشت فيه.

وقف العسكري كتمثال دارسٍ قرب ثقب الزنزانة وهتف بأعلى صوته:

ـ الموريتاني أحمد فال.. تعال.

خرط مزلاج الزنزانة حتى كاد فؤادي يطير، فوقفت منتفضاً كعصفور بلّله القطر. اقترب ووضع خرقة سوداء على عيني وشدها للخلف ثم قادني من يميني، بينما كنت أمسك بنطالي بيسراي حتى لا يسقط.

إذ المزعج أن أحد الحراس كان قد نزع الزر الأمامي لبنطالي أثناء التفتيش، مما حتم علي طيلة بقائي في هذه الزنزانة أن أمسكه ـ حتى لا يسقط ـ كلما اقتادوني لغرفة التحقيق.

ـ امـش.. روح.. خـيـرك!... اطـلـع درج.. لـف، ادخـل.. ستحفظ الطريق لاحقاً.. روح... امش!.

كنت أفكر بسرعة خفقان قلبي في طبيعة ما ينتظرني. كنت أتوقع كل شيء. أحسست في تلك اللحظة وأنا أقاد كسقط المتاع ممنوعا من أبسط نعم الله علي ـ نعمة البصر! ـ بعظمة مثال ﴿**ولقد كرمنا بني آدم**﴾[1]. شعرت بقيمة العمل الذي من أجله اعتقلت، ومن أجله قد أعدم خلال ثوان. تمثلت أمامي في تلك اللحظات كل القيم المحلقة التي من أجلها انتفضت ليبيا قبل عدة أسابيع.

ألا ما أغلى معاني الكرامة الإنسانية. أحسست أني واحد من آلاف العرب الذين يساقون إلى المقاصل ليدفعوا ضريبة عودة أمتهم إلى مسرح التاريخ.

كانت كل خطوة أخطوها موقعة بآلاف الأخيلة والصور البعيدة والقريبة، الواضحة والغائمة، الدالة والسخيفة.

هل سأدخل غرفة من غرف التعذيب المهولة التي عجز الخيال العربي المجنح طيلة الخمسين عاماً الماضية عن وصف بشاعتها؟

هل أراها أخيراً رأي العين بعد كل ما قرأت عن أهوالها مما رسمته أخيلة الأدباء والشعراء ومجازات البلغاء؟

هل سـ«أفتح عيني حين أفتحها» على إحدى الغرف التي وصفها عبد الرحمن منيف في **شرق المتوسط**[2].

---

(١) **القرآن الكريم**، «سورة الإسراء،» الآية ٧٠.

(٢) رواية **شرق المتوسط** للروائي عبد الرحمن منيف.

هل سأفتح عيني لأرى رجالا معلقين تُطفأ السجائر في أجسادهم بينما يتمايل الجلادُ ثملاً ضاحكاً، والضحية تتلوى بين يديه روحا تئن؟

هل أنا داخل سجن **تازمامارت الليبي** وسأكابد كل ما كابده أحمد المرزوقي في **تزممارت: الزنزانة رقم** 10[(٣)].

كنت أثناء ذلك أعزي النفس بما روي من أن الإمام أحمد بن حنبل كان يقول: «لست أبالي بالحبس، وما هو ومنزلي إلا واحد، ولا قتلاً بالسيف، إنما أخاف فتنة السوط، وأخاف أن لا أصبر. فسمعه بعض أهل الحبس فقال له: لا عليك يا أبا عبد الله، فما هو إلا سوط أو سوطان ثم لا تدري أين يقع الباقي».

ثم وقفت معصوب العينين مرتاع الفؤاد مشتتَ الفكر داخل غرفة التحقيق. رغم الفزع الذي كان ينتابني خوفاً من لحظة النهاية أو لحظة التعذيب، كان هناك شعور موازٍ يملأ نفسي بهجة وثقة بالنفس. ألا ما أعجب النفس الإنسانية!

كنت أحس بدفء عارم كلما تذكرت أني أسير إلى المصرع نائبا عن آلاف المظلومين الذين حاولت إيصال أصواتهم في لحظة تكشفت فيها عناصر التاريخ في بلاد بني قومي.

أفقت من كل ذلك على وقع صوته طارقا طبلة أذني أول مرة!

---

(٣) هذا عنوان كتاب السجين المغربي أحمد المرزوقي: **تزممارت: الزنزانة رقم** 10.

صوت حاد فيه نحول ومكر وخبث. صوت تلمس الشك في تضاعيفه حتى ليُخيل إليك أن كل نبرة فيه تشكك في حقيقة وجود أختها.

صوت قادم من عالم غامض. عالم المكائد والدسائس والأسرار والرموز. عالم الأوامر الصامتة والتنفيذ الصامت والطاعة الصماء.

عالم السيجارة الموقدة طوال الليالي الطويلة طول ليل التعذيب، عالم الورق المتطاير الذي يفوح كذباً، عالم تواقيع الأبرياء على جرائم لم تدر بخلد أي منهم يوما، ولم تقع إلا داخل أدمغة المحققين.

عالم لا يُنظر فيه إلى الأشياء على ظاهرها، بل لكل كلمة فيه ظاهر وباطن. عالم أبعد ما يكون عن البراءة والصدق.

كان صاحب الصوت ضابط مخابرات ليبياً سيشرف على التحقيق معي ومع زملائي حتى النهاية.

- دعوه واقفاً! لا تتركوه يجلس!، الخائن...، الكلب..، الخنزير...، بايعها...، ما اسمك؟

- أحمد فال ولد الدين

- بئس الإنسان أنت!، وبئست المؤسسة التي رمت بك إلى المهالك!، يا خائن يا غدار يا متآمر يا متمالئ!، أنت واحد من جرذان الجزيرة!

اسمع.. لقد دخلت عرين الأسد ولن تخرج من بين أضراسه.

قلتم لأنفسكم: «لقد سقط القذافي وليبيا فوضى، وسنذهب ونتآمر حيث نريد». غرّك السبق الصحافي!، هذا عرين الأسد.

اسمع...! سيصب عليك من العذاب ما لم تتخيله!، لن تعرف من أين يأتيك الضرب والركل والسلخ والصفع!

ستبكي على اليوم الذي ولدتك فيه أمك! سنضعك وراء الشمس..، لن تراها ما حييت.

وفر على نفسك واعترف بحقيقة أفعالك وتآمرك، وإلا فأنت الخاسر الأكبر!، الخاسر من جسمك وعقلك!

بعت ضميرك للجزيرة الحقيرة الخنزيرة!

أنت من بلد كنا نفترض في أهله أنهم أهل فطرة وصدق وعروبة. لكنك دنست كل ما يعرف عنكم من صدق وكرم وشهامة. أخبرني بربك، لماذا بعت ضميرك بحفنة دولارات تعطيك إياها دُويْلةُ قطر؟

من هم القطريون أصلاً قبل الجزيرة؟ وكيف أصبحوا شيئاً مذكوراً؟

كان كبير المحققين ـ ودعونا نتفق على تسميته بالبُحتُرِ (ومعناها: القصير) ـ يتنافس وثلاثة آخرين معه في كيل سيل السب والشتم والتعنيف والتخويف والتهديد.

كنت طوال ذلك واقفاً صامتاً، متسلحاً بشعار الفلسفة الرمزية من أن أفضل تعابير الروح هو الصمت، فاللغة تصف هذا العالم المنظور، أما عالم عذابات الروح فمشاعر سائبة تتحطم اللغة على أسوارها كالّة عاجزة عن التعبير.

فأكبر وأفظع المعاني الإنسانية هي تلك التي تتحطم اللغة على أسوارها يائسة من قنصها وحدّها في أحرف وجمل.

كان شعوراً متناقضاً يسيطر عليّ، والبحتر وصحبه يسبون ويشتمون. كنت أحس بقوة عاتية نابعة من نبل المهمة وسلامة القصد وعشق التحرر، كما كنت في اللحظة ذاتها خائفا من عدو لا يمكن التنبؤ بتصرفاته.

ظللت صامتاً صمت التماثيل، خائفا خوف من يجهل مصيره، مضطرباً اضطراب من يعرف طبيعة الوحش الكاسر الذي وقع بين مخالبه. فهاأنذا أسير.. في أيدي كتائب القذافي.

كنت لا أنبس إلا إذا طلب مني المحقق الرد.

ـ ما اسمك؟

ـ أحمد فال ولد الدين.

ـ تاريخ ومكان الميلاد.

ـ ١٩٧٧ بموريتانيا.

بدأ البحتر في الأسئلة التقليدية التي يبدأ بها المحققون عادة. إذ يريد أن يعرف كل شيء من يوم ولدتني أمي في جبال تكانت في العمق الموريتاني إلى أن وقفتُ بين يديه.

كان كلما أرعد وأبرق ينافسه مساعدوه في ذلك حتى خيل إلي أنهم يحاولون استرجاع كرامتهم المجروحة بسببي وشتمي. لكأني الأسير الوحيد الذي رجعوا به من

ساحات الوغى. أنا الأذن الوحيدة القادمة من معسكر العدو، المصغية شاءت أم أبت لكل ما يقولون، وأنا الصامت صمت القبور.

بعد نحو ربع ساعة، غير البحتر لهجته وأمرني بالجلوس.

كانت أول مرة يمنعني فيها إنسان من حرية التحكم في جسدي.

غمغم البحتر قائلا بهدوء مُتَصنّع:

ـ أنا لا أريد أن أتعبك، نحن نريد أن ننجز عملنا حتى ينتهي التحقيق بسرعة.

أحسست أن في الغرفة محققين أكثر من الثلاثة الذين أسمع أصواتهم. أحسست أنفاساً وشممت دخاناً آتياً من جهات مختلفة من جوانب الغرفة. كما شعرت بأن البحتر يتبادل إشارات ويستجيب لمقترحات وإيماءات أثناء حديثه معي.

ـ هل تريد شاياً يا سيد أحمد؟

قال البحتر بلغة جديدة وكأنه يعطي كل حرف من حروفها حقه من النطق.

ـ لا، شكراً، همستُ.

ـ لا، لازم. يا حاج! جيب شاي. تروح إذا أفرج عنك وتقول الليبيين ما سقوني شاي! عيب! عيب يا راجل.

جاء أحد العسكر ووضع كأس شاي في يدي. كانت رائحة الشاي زكية جدا. ففي عالم الأقبية تتحول الروائح

الطبيعية الطازجة إلى عطور أخاذة. كان البخار المتصاعد من الكوب يستقر داخل منخريّ كأفضل عطر باريسي.

ـ أيوه يا أحمد..

نريد أن نعرف كل شيء. كيف تآمرتم وكيف نفذتم.

(٢)

كان يوم الخامس والعشرين من فبراير ٢٠١١، يوماً عادياً في غرفة الأخبار داخل قناة الجزيرة. إذ بدا المشهد طبيعيا، وكما عهده كل من عمل في هذه المحطة القابعة عند تقاطع التلفزيون وسط العاصمة القطرية الدوحة. درجةُ الحرارة داخلها باردة كالعادة بفعل درجات التكييف العالية، رغم جو الثورات العربية الساخن الذي تستشعر حمّاه في نبرة كل صحافي هنا.

كنت أعمل في فريق «الحصاد المغاربي» فدخلت غرفة الأخبار على تمام الخامسة مساء، وكان الهمّ المغاربي ذلك المساء مختصراً في كلمتين اثنتين: «ثورة ليبيا».

جلست وبدأت تصفح آخر الأخبار التي تقذفها وكالات الأنباء وشبكات المراسلين إلى الحاسوب الرمادي الذي بين يدي. معظم الأخبار العاجلة تتحدث عن الثورات العربية.

عادت بي الذاكرة شهرين للوراء.

يوم جلست على نفس الكرسي ذات مساء فوصلني الخبر التالي:

«أقدم شاب تونسي يدعى محمد البوعزيزي على إحراق نفسه في منطقة سيدي بوزيد، في العمق التونسي، بعد أن أهانته شرطية وطرده حاكم الولاية».

يومها، ظننتها جملة ميتة. واحدة من آلاف الجمل التي يهضمها الصحافيون في غرف الأخبار دون أن تترك لها أي بصمة على حياتهم أو حيوات أهليهم.

كانت الحقيقة خلاف ذالك.

فخلال أسابيع من وصول تلك الجملة القلقة كان العالم العربي يغلي محاولا غسلَ عارِ حقبٍ من الاستبداد، وأصبح اسم بائع الخضار التونسي أكثر الأسماء ترددا في بيوت العرب.

لقد أخذ التاريخ منعرجاً جديداً في هذا الصقع من الكرة الأرضية.

قمت من فوق الكرسي وأخذت أقل من عشر خطوات يساراً، لأجدني داخل مكتب مدير التخطيط الإخباري في القناة محمد داود.

دلفتُ إلى المكتب تاركاً الباب مشرعاً وبادرت محمداً:

- ليبيا تغلي منذ أسبوع، ولنا حضور في شرقها الذي يسيطر عليه الثوار، لكننا غائبون عن الغرب تماماً. إن لم تسمح لنا بشد الرحال إلى الغرب الليبي فقد يقوم أحدنا بما قام به البوعزيزي.

ابتسم محمد مديراً ناظريْه، مُحملقاً من وراء نظارتيْه ولم ينبس، ففي سماعتيْ الهاتف في يديه وجهاز الكومبيوتر

أمامه شاغل عن الدخول في هذه السفسطائيات. واصلت قائلاً:

- الفرق فقط أن البوعزيزي ارتكبها في ركن قصي من دولة أمنية ففاتت عدسات التصوير ولم يحتفظ التاريخ منها بصورة في دفتره، أما نحن فقد نرتكبها داخل غرفة أخبار أشهر قناة عربية.

ظل محمد يبستم ابتسامته المعتادة التي تقوم مقام مفتاح يشرح النفس فأردفت:

- هل تدري ماذا سنفعل؟ سينتظر «الانتحاري الصحافي» حتى تبدأ نشرة السابعة فيراقب حركة المذيع، وفي اللحظة التي يظهر فيها المذيع على الشاشة يصب شهيدنا الزيت قادحاً الزناد!

ضحك أبو خالد - هكذا ندعوه - مِلْء شدقَيْه بصوت مرتفع. فرغم قناع الصرامة الإدارية الذي يتميز به الرجل، إلا أنه يحمل بين جنبيْه قلباً خفاقاً ونفساً عطوفاً. فعندما ينظر إليك مستمعاً تلمس في حركة عينيه حنيناً مبهماً غامضاً. هل هو الحنين إلى قريته الفلسطينية «جمّاعين» التي هُجّر منها وهو في عالم الذر ولم يرها إلا مرة واحدة طيلة حياته؟ أم هو حنينه إلى أن يصبح العرب شيئا مذكورا؟

كان أبو خالد كعادته بالقميص والبنطال، فهو يضيق ذرعاً بالبدلة وربطة العنق، أو بملابس «علية القوم» كما يسميها. كان يرتدي قميصاً أبيض مقلماً بالأزرق ملفوفاً إلى وسط الذراعين، مما يجعل المظهر الشبابي له يتناقض مع الصلعة التي بدأت تغزو هامته.

قلت له:

- لعل من يراك بهذه الملابس الشبابية يحسبك أحد المراسلين الجدد. فرد ضاحكاً:

- أنا أحب أن ألبس ملابس «العامة والدهماء» على لغتك، وليتنا تخلصنا من العُقد وأصبح الرجل يستطيع السير حافي القدمين إلى مكتبه.. سيكون أمراً مريحاً وطبيعياً وانتصاراً للذوق الذاتي.

يده اليمنى تمسك سماعة الهاتف الأرضي، واليسرى جهاز «آي فون» أسود اللون، والرنين لا يتوقف. إنه يدير واحدة من أكبر شبكات المراسلين على ظهر الأرض.

التفت إليّ أبو خالد قائلاً:

- نعم يا «بوعزيزي الجزيرة».. هل أنت مصر على السفر؟

- نعم.

- جهز نفسك لتسافر على أول طائرة. رفيقاك، لطفي المسعودي، وعمار الحمدان. وفقكم الله يا أخي!

ثم عاد أبو خالد إلى الغرق في عالم موظفيه واتصالاته.

* * *

خلال دقائق كان ثلاثتنا داخل مكتب الرجل الذي ينسق ما بين مكتب المدير العام وغرفة الأخبار: معتصم أبو داري.

دلفنا إلى مكتبه على عجل، فتلقانا باسماً مرحباً كعادته قائلاً بلهجته المقدسية الأخاذة:

ـ شو؟ إنتُو جاهزين ومستعدين لدخول الزاوية زنقة زنقة؟

ناولنا معتصم مجموعة من الأوراق الإدارية لنوقع عليها ترتيباً للسفر، ثم واصل الحديث على الهاتف مع آخرين، محاولاً ترتيب كل ما نحتاجه لإنجاح المهمة. خلال دقائق كان كل شيء قد رتب.

بدأ معتصم يتحدث معنا بشكل مسهب عن طبيعة المهمة، منبها إيانا إلى المخاطر التي قد تعترضنا، ثم اتفقنا وإياه على خطوط عامة نقوم بها في حالة التعرض لأمر ما.

كان معتصم قد نسق مع فريق إنقاذ من جزيرة جربة التونسية في حالة حوصرنا أو تعرضنا لمشكلة ما، ثم مال علي ودسّ وُرَيْقَةً صغيرةً في يدي هامساً:

ـ احفظ هذا الرقم..، ولا تتصل به إلا في الحالات الطارئة، قل له إذ اتصلت به: أنا من طرف «أبو عبد الله في الدوحة»، وسيقوم باللازم حالاً.

كان واضحاً أن سنوات من العمل والتنسيق داخل أهم محطة إخبارية عربية قد علمت أبا عبد الله فن التخطيط والتنفيذ بسرعة لافتة.

كانت علامات الإرهاق بادية على محيا معتصم وهو يتحدث، فمنذ بدأت شرارة الثورات العربية أصبح الرجل يعمل ليل نهار.

ثم وقف وسط مكتبه الأنيق وعانقنا بحرارة..، فكان آخر من رأيناه من إدارة القناة.

بعد أقل من عشرين ساعة كان كل شيء قد رتب، والتقينا ثلاثتنا في مطار الدوحة.

كانت الحركة متسارعة داخل المطار الواقع في الجنوب الشرقي من مدينة الدوحة. كانت حركة المسافرين المتجهين إلى مناكب الأرض متسارعة، وصالات المغادرين ملأى بمختلف الأوجه والسحنات، لكن الغالبية العظمى كانت لشبان آسيويين يجرّون أمتعتهم وهمومهم عائدين إلى أوطانهم بعد سنوات من الكدح في بلاد الخليج.

كانت الشاشة أمامي تشير إلى أن موعد الإقلاع هو ١٣:٥٥ دقيقة بعد الظهر. ذاك يعني أن بإمكاني المرور على المكتبة الداخلية للمطار لشراء ما تمكن قراءته بين الدوحة وتونس.

(٣)

في بيت متواضع في أحد أحياء دار النعيم بالعاصمة الموريتانية نواكشوط، كانت عائشة بنت عمار جالسة على سجادتها تستعد لصلاة الأوابين، في يدها اليمنى مسبحة يميل لونها إلى الحمرة، لكأنما طابقتْها مع لون السجادة العنابي التي تصلي عليها. رن هاتفُها فُجاءةً:

ـ أمنّا، كيف الحال؟

ـ بخير والحمد لله.

ـ أنا في طريقي إلى تونس.. في مهمة عمل.

ـ حفظك الله أنى توجهت..!، لكن لماذا تونس؟

ـ هناك بعض الأمور علي إنجازها، وما هي إلا أيام ثم أكر راجعاً إلى الدوحة بحول الله.

ـ المهم أن لا تكون للأمر علاقة بليبيا.

ـ لا لا. آه...، يعني.. أقصى ما قد أصله الحدود التونسية الليبية لإنجاز تقارير عن النازحين الليبيين ثم أعود.

ودعتني بالدعاء، وانقطع الاتصال.

من الغرائب أن قلب الأم أدق توقعا من أفضل مراكز الدراسات في العالم، فرغم أنها تثق فيما أخبرها به فإنها شكت في الأمر، ورمت أسئلة حيرى تستبطن الشك في طبيعة المهمة ظلت ترفرف فوق رأسي.

كان لزيارتي إلى تونس معنى آخر في قلب الأم، لم يدركه إلا شاعر تونس أبو القاسم الشابي في قصيدته «قلب الأم» حين قال:

أعرفتَ هذا القلبَ في ظلـــماءِ هاتيكَ اللحودْ
هو قلبُ أمّك، أمكَ الســـكرى بأحزان الوجودْ
هو ذلكَ القلبُ الـــذي سيعيشُ كالشادي الضريرْ
يشدو بشكوى حزنهِ الـــداجي إلى النفَس الأخيرْ
لا ربّة النسيانِ ترحـــــم حزنهُ، وترى شقاهْ
كلا،! ولا الأيامُ تبُـــــلي في أناملها أساهْ
هو ذلكَ القلبُ الذي مهما تقلبتِ الحياةْ
وتدفـّعَ الزمنُ المدمـــدمُ في شِعاب الكائناتْ
وتغنـّت الدنيا وغـــرّدَ بلبلُ الغاب الجميلْ
سيظل يعبدُ ذكريـــاتكِ، لا يملُّ ولا يميلْ

(٤)

لامست الطائرة أرضية مطار قرطاج الدولي على تمام العاشرة مساء. بدا المطار التونسي وكأنه يتجمل للقادمين، معتذراً عن كل سنوات الحيف التي كان يواجهها المارون بمطارات أرض القيروان.

ـ ما هي مهنتك؟

ـ صحافي.

ما زاد الشرطي المفعم حيوية على أن طبع جوازي قائلاً بكل لطف:

ـ أهلا بك في تونس.

تركت الشرطي الرابض فوق مقعده وخيالي يضج بصور من آخر مرة خرجت فيها من تونس والأمن من أمامي ومن خلفي، بعد أن أُوقِفتُ واستجوبت أربع ساعات، لمجرد أني زرت المحامي عبد الرؤوف العيادي، المعروف بدفاعه عن حقوق الإنسان.

حقا إنها تونس جديدة.

كان الوضع في ليبيا متسارعاً جداً. حتى كأن التاريخ الذي ظل كسول الخطى في هذا الصقع من الأرض استيقظ فجأة مقرراً التعويض عن اثنين وأربعين عاماً من الركود .

كانت عناوين الأخبار التي طالعتها في صحف الطائرة من قبيل: «استقالات في صفوف المسؤولين الليبيين، والمجالس المدنية المؤقتة تدير البلاد... واشنطن: القذافي فقد الشرعية والتدخل العسكري ممكن».

«الزاوية: انتفاضة شعب ضد القذافي ثلاثين ميلا غربي طرابلس».

المارد الصحافي داخلي كان يتقدّد في إهابه كي يكون شاهداً على ما تمور به ليبيا، إذ أحسست بأن الأمة تمر بمرحلة محددة في تاريخها لن يتاح لأجيال قادمة أن تحظى بالشهادة عليها.

كنت أشعر بأن تغطيتي لما يجري هناك مساهمة في كفكفة جراح الأمهات الليبيات اللائي فقدن أبناءهن طيلة العقود الأربعة الماضية، لذلك كانت نفسي تذهب حسرات كلما رأيت عقبة في طريق الوصول إلى الميدان، ورغم أني لم أفكر في أن خطراً من نوع ما قد يواجهني في مهمتي هذه فإني كنت أقول لنفسي: يكفيك شرفا أن تموت محاولاً إيصال الأصوات المظلومة المكبوتة إلى العالم.

* * *

ما إن خرجنا من المطار حتى رأيته ملوحا بيديه. بدا خمسينياً، أسمرَ السحنة، ربعَ القامة، متلفعاً بمعطف أسود،

فدرجة الحرارة ١٦ درجة خارج مطار قرطاج الدولي.لم يكن حمزة يحمل لافتة بأسمائنا لكنني لم أشك أنه هو.

ـ كيف حالكم وكيف كانت الرحلة؟.

قالها الرجل بلكنة تونسية محببة إلى النفس. فالأسابيع الماضية حولت اللهجة التونسية من لهجة منزوية في شمال إفريقيا إلى أغنية للحرية يفطر عليها كل عربي في بيته. حاول حمزة بأخلاقه العالية مساعدتي في حمل الحقائب، فدفعت يديه برفق قائلاً:

ـ كانت رحلة طيبة خصوصاً أنها أتاحت لنا المرور ببلاد الفاتحين، إذ توقفنا هنيهة في إسطنبول.

بعد خطوات وصلنا إلى سيارة حمزة التي كانت متوقفة في الجانب الأدنى من مواقف المطار، فرمينا حقائبنا بسرعة داخلها.

بدأت السيارة تطوي بنا شوارع تونس في اتجاهها إلى الفندق، وكنت مشدوه الخاطر مفكراً في برنامجنا وكيفية وصولنا إلى الحدود التونسية تمهيداً لعبورنا إلى الداخل الليبي من الغرب. كنت أشعر بأن كل لحظة تؤخر عبورنا إلى الزاوية قد تساهم في الإسراع بإفناء خلق من سكان تلك المدينة الصابرة. كانت صور مأساة حماة السورية التي حدثت في فبراير من عام ١٩٨٢ تتراقص في خيالي كلما فكرت في الزاوية. إذ ماذا لو تسنى لأحد الصحافيين من الجيل السابق على جيلي أن يصور بعدسته من داخل حماة؟ هل كان بإمكان حافظ الأسد أن يقوم بما قام به؟.

كانت الصحافة العالمية قد وصلت إلى الجانب الشرقي من البلاد الذي يسيطر عليه الثوار، وكان المجلس العسكري الانتقالي الذي شكل في المناطق الشرقية يسيطر سيطرة كاملة على مدن مثل البيضاء ودرنة وبنغازي منذ انطلقت انتفاضة ١٧ من فبراير ٢٠١١.

لكن الجانب الغربي ظل عصيا ولم يتمكن أي صحافي حتى تلك اللحظة من دخوله، إلا ما كان ممن دخلوا طرابلس بإشراف السلطات الليبية وظلوا شبه سجناء عند رجال الأمن الليبيين. كانوا لا يرون إلا ما يريد لهم الأمن أن يروه.

أصبحت تونس في عيني أكثر رونقا وبهاء؛ فأشجار الشارع تتنفس الحرية بعمق وسخاء! والجو مفعم بأريج الحرية، ورائحة الاستبداد الذي زكم الأنوف أكثر من عشرين حولاً قد ذهبت إلى غير رجعة. كنت أردد في نفسي متأملا حال تونس ـ وأنا في المقعد الأمامي للسيارة لحظة توقفها أمام فندق «أريحا» ـ بيت شاعر شنقيطي قديم:

أَمَرْبَعُ الغصنِ ذا أم تلك أعلامُه؟
لا هو هو.. ولا الأيام أيامه![1]

بعد قضاء ليلة واحدة في فندق أريحا قررنا الانتقال إلى فندق آخر في الجانب السياحي من العاصمة تونس. حملنا حقائبنا وطوينا الأرض في اتجاه فندق المرادي غمرت.

أثناء انشغالنا بترتيبات الانتقال إلى الفندق الجديد كان

---

(١) البيت مطلع قصيدة لمولود بن أحمد الجواد الشنقيطي.

رجل أربعيني قصير القامة ممتلئ الجسم أسمر السحنة مشغولٌ بإجراءات الدخول إلى مطار قرطاج قادماً من دبي. كان يحمل بيمينه شنطة صغيرة الحجم بنية اللون، بينما كان منشغلاً بضبط التوقيت المحلي في ساعته الذهبية التي تلمع في يساره.كنا ننتظره على أحر من الجمر. فقد يكون يحمل في جيبه مفتاح دخولنا إلى ليبيا.

خرج جمال ـ اسمه الحقيقي عبد الناصر السعداوي ـ حذراً من المطار وأوقف أول سيارة أجرة، ثم رمى جسمه المنهك في مقعدها الأمامي طالباً السائق أن يغذ السير. ثم أخرج هاتفاً صغيراً من حقيبته اليدوية، وخلال ثوان كنت على الطرف الآخر من الخط:

ـ ألو .. أنا جمال

ـ أهلاً!

ـ لقد وصلتُ الآن ويجب أن نتقابل بسرعة.

أعطيته اسم الفندق وعنوانه، وبعد ساعتين تقريباً التقينا في بهو فندق المرادي غمرت. بدا جمال مثقلاً بجراح ليبيا، إذ يخيل إليك عندما تحادثه أن كل سهم أصاب هذا البلد المسكين وقع نصله في مكان من جسم الرجل وروحه.

قال لي بلهجة ليبية واضحة:

ـ أنا لم أنم منذ أربعة أيام.

كان التعب بادياً على محياه وكانت عيناه ترويان رحلة طويلة من العمل الدؤوب والسهر المضني.

وضع جمال أمامنا مجموعة من الخيارات للعبور إلى الغرب الليبي. فإما أن نعبر بحراً عن طريق ازوارة ـ مسقط رأس جمال ـ أو عن طريق بوابة رأس اجدير على الحدود التونسية الليبية في حال سيطر الثوار نسبياً على البوابة. تداولنا الحديثَ في كلا الاحتمالين واستقر الرأي على أن نتحرك في اتجاه الحدود، على أن نحسم أحد الخيارين لاحقاً بناء على طبيعة الموقف ووحي المعطيات.

حاول جمال أن يجد لنا مكاناً على الطائرة المتجهة إلى جربة نفس الليلة على أن نتحرك منها باتجاه بن قردان الحدودية، إلا أن وجود أماكن شاغرة كان صعباً في تلك الساعة المتأخرة. أعرضنا صفحاً عن فكرة الطائرة وحزمنا أمتعتنا واتجهنا إلى مرآب الحافلات العامة.

استأجرنا سيارة صغيرة لتنقلنا إلى مدينة مدنين في الجنوب التونسي، على أن نأخذ أخرى من هناك إلى بن قردان، وانطلقنا. تحركنا من تونس العاصمة على تمام الحادية عشرة مساء في اتجاه مدنين، بواسطة الطريق الوطنية رقم ١ الرابطة ما بين رأس جدير وتونس العاصمة.

ما إن اعتلت بنا السيارة الطريق حتى بدأ البرد يعمل عمله فينا، رغم الملابس الشتوية التي اشتريناها من تونس قبل خروجنا منها بعدة ساعات.

اللافت أنه رغم البرد والسهر فإن سائق السيارة كان يستمع لشريط غنائي يسخر من الرئيس المخلوع بن علي. كانت كلمات الشريط موقعة بلازمة بن علي الشهيرة «آن فهمتكم.. أيوه فهمتكم!».

استسلم جمال في المقعد الأمامي لنوم كان واضحاً أنه في حاجة ماسة إليه، وحاولت أنا ولطفي تجاذب أطراف الحديث لتقصير المسافة ما بين مدينة مدنين وتونس والتي تصل ٤٨٢ كيلومتراً.

ما إن صدح مؤذن الفجر وبدأت خيوط الصباح الأولى تتسلل إلى الحقول الزراعية المحيطة بمدنين، حتى توقفت سيارتنا بهدوء أمام محطة النقل العمومي بالمدينة.

استأجرنا سيارة أخرى وتحركنا في اتجاه بن قردان التي تبعد حوالي نصف ساعة من مدنين تقريباً. ورغم قرب المسافة بين المدينتين فإننا لمسنا أثر الأزمة الليبية على الأهالي في هذه المناطق، إذ كنا لا نمر بأي منطقة إلا رأينا أخبية النازحين تحيط بالمساجد ودور الشباب ومقار البلديات. لقد أبدى التوانسة كرماً أسطورياً في تعاطيهم مع النازحين الليبيين. بعد نصف ساعة بدت معالم المدينة ذات السبعين ألف ساكن تتراءى.

دخلناها في ساعات الصباح الأولى، فشعرت بأنها مثقلة بكل خصائص المدن الحدودية التي عادة ما يكثر فيها التجار والمغامرون ورجال الأمن واللصوص والمتسكعون والحالمون. كان عشرات الشباب يتسكعون أمام المقاهي والمطاعم يدخنون النرجيلة، ويحتسون الشاي، ويلعبون الكوتشينا، ويضحكون بطريقة مجلجلة. كانت كؤوس الشاي وأعمدة الدخان تدور بينهم بسرعة دوران الشائعات القادمة من جهة الحدود الليبية.

فهنا يمكن لأي قصة أن تروج. إذ كان التونسيون خارجين لتوهم من تحت عباءة حكم أمني عوّدهم الخوف من

ذواتهم عقودا من الزمان، فتحولت المقاهي وَجْهَ النهار وزُلفاً من الليل نواديَ سياسية نشطة يختلط فيها الخطاب الإسلامي بالشيوعي بالليبرالي، بعد أن كانت جملة سياسية واحدة تُقال داخلها ترسل الرجل الكريم إلى غياهب السجون .

بدت بن قردان كذلك أفضل تجسيد للقصة الليبية. إذ حاولنا إيجاد فندق للإقامة في انتظار ترتيب الخروج إلا أننا لم نعثر إلا على فندق متواضع ذي نجمة واحدة اسمه «نزل الجنوب».

نزل ثلاثتنا في «نزل الجنوب» بينما استقر جمال في الفندق المجاور لنا.

كان الحصول على فندق من أي مستوى تحدياً كبيراً. فهذه المدينة لم تجهز نفسها يوماً لتصبح محجاً للصحافة العالمية، لكن شوارعها وفنادقها امتلأت فجأة بفرق صحافية قادمة من جميع أصقاع الدنيا، حتى ليُخيل إليك عندما تمعن النظر في السحنات المتكدسة في بهو الفنادق أنك في مقر الأمم المتحدة.

رمينا حقائبنا في غرفة واحدة ذات أسرة ثلاثة جهزها صاحب النّزل على عجل. وبينما كنت أحاول ترتيب ملابسي داخل حقيبتي رن الهاتف وكان جمال على الخط الآخر:

- خلاص! هل تظنون أني سأهملكم كي تناموا؟

فرددت بصوت مرهق:

- أعرف «دقتْ ساعة العمل!»... (في إشارة للجملة الشهيرة للقذافي).

ـ نلتقي في المقهى خلال دقائق.

دخلت المقهى الذي كان على بعد بضع خطى من النزل وسط سحب دخان السجائر والنظرات المتطفلة. فالبلاد حديثة عهد بنظام بوليسي خانق، ومن الصعب على الناس أن يغيروا نظراتهم وشكوكهم وفضولهم خلال أسابيع، فما زال الشك والرصد سمة من سمات الحياة في المقاهي التونسية تلك الأيام.

ما إن دلفت إلى المقهى حتى لاحظت أن جمالا ليس وحده. اقتربت منه ـ وأنا أخرج يمناي من جيب بنطال الجينز الأزرق الذي أرتديه ـ مبادراً:

ـ كيف الحال؟

ـ بخير والحمد لله.

قالها جمال ثم أضاف بصوت منخفض:

ـ هذا أخوك كامل التلوع.

بدا كامل التلوع رجلاً أربعينياً، قمحي اللون، خفيف الحركة، متوسط القامة، أسمر السحنة، توحي نظراته بأن الدنيا ما زالت مليئة بالمعادن الخيرة.

ـ أهلاً وسهلاً.

ـ فرصة سعيدة!

ثم قاطعنا جمال ضاحكاً مخاطباً كاملاً ومشيراً إليّ بيمناه الممسكة بفنجان القهوة:

ـ هذا من المتآمرين متاعين الجزيرة!.

فرددت مازحاً:

- أهلاً وسهلاً بكل متعاطي حبوب الهلوسة!.

كانت أول مرة أرى فيها كامل التلوع. كان يرتدي قميصاً بني اللون وبنطالاً ومعطفاً أسودين، وكان يدخن بشره.

وسط جو مفعم بالترقب والحماسة وروائح القهوة والسجائر، بدأنا نناقش طرق العبور إلى الغرب الليبي.

أثناء الأخذ والرد التفت جمال إلي وقال مشيراً إلى كامل:

- هذا الرجل سيوصلكم إلى الزاوية...، سيحملكم على جناحيه لتجدوا أنفسكم على الخطوط الأمامية في ضواحي طرابلس.

فرد كامل باسماً:

- قريباً بحول الله.

ثم أردف صارفا ناظريْه عني:

- لكن الطريق ليس بالسهولة التي تتخيلون.

بعد نصف ساعة من الحديث مع كامل وجمال عدت إلى النزل كي أطلع زميليّ - اللذين يتحرقان شوقا للدخول إلى ليبيا - على ما جد، فبادرني لطفي سائلاً:

- متى السفر؟

- قريباً بحول الله، إنْ هي إلا ساعات ونجد بعدها أنفسنا في الغرب الليبي.

ـ وما هي الطريق؟

ـ قد نذهب إلى زوارة بواسطة البحر. سنتحرك في زوارق صغيرة على أن نصل شاطئ المدينة خلال ساعات.

كانت تلك هي الخطة الأولى لكنها لم تنضج، فظلت تتغير. كان مدير التخطيط الإخباري يسأل باستمرار عن موعد تحركنا تجاه ليبيا، وكنت أوافيه بالمواعيد التي يعطيني إياها كامل وجمال.

لكن الساعات تحولت إلى أيام....

كان زميلاي يضغطان علي بضرورة سرعة التحرك، وكنت أنا بدوري أضغط على كامل، وكان هو الآخر يضغط على من ينسق معه، فظلت الرواية طيلة أيام هي أننا سنتحرك خلال ساعات...

كنت كلما رجعت إلى النزل بعد لقاء مع كامل أرى جهاز التلفزيون المعلق عند مدخل النزل ضاجاً بالأخبار عن الساحة الليبية، فأحس بوخز مزعج يدب في أنحاء من جسدي.

كيف نصل إلى الحدود الليبية ثم نمكث كل هذا الوقت دون أن ندخل؟ ماذا لو تأخرنا حتى انتهت القصة؟ لابد من أن تكون الجزيرة أول قناة تبث صوراً حية من الساحات الملتهبة التي تسطر المستقبل الليبي هذه اللحظات.

مرت أيام ثلاثة ثقيلة الوطء بطيئة الحركة، كنا نشعر طوالها بأننا سجناء.

وفي اليوم الثالث كنا جالسين في النزل نتعشى، وفجأة هاتف كامل.

قال لي مباشرة ودون تحية:

- عليكم بالنزول من الفندق خلال خمس دقائق. سترون سيارة سوداء وسأكون داخلها.

خلال دقائق كان ثلاثتنا في الشارع، واقتربت السيارة. فتح كامل الباب مرحّباً، ثم توارى أربعتنا داخل سيارة الكورولا السوداء، وطويْنا الأرض جنوباً.

كان كامل يجلس في المقعد الأمامي بينما يمسك بمقود السيارة عن يساره شاب ثلاثيني قصير القامة قليل الكلام، تقول لهجته ومعرفته بخفايا المنقطة إنه من سكان الجنوب التونسي.

مال كامل من مقعده في اتجاه الخلف وخاطبني ورفيقي قائلاً:

- نحن في طريقنا إلى منطقة ذهيبة الحدودية، التي يبدو أن الدخول الآمن إلى الغرب غير متاح الآن إلا منها.

استمرت الرحلة ما يقارب الساعتين، دخلنا بعدها حدود المدينة الحدودية الهادئة. كان جو المدينة جبلياً صحراوياً أخاذاً. إذ تقع ذهيبة في جنوب شرق تونس، وهي جزء من محافظة تطاوين، ويوجد بها معبر وازن الذي يعتبر المنفذ الحدودي الثاني لليبيا بعد معبر رأس جدير .تقع ذهيبة على مسافة ٢٠٠ كلم تقريباً من مدينة بن قردان.

ويبلغ عدد سكانها وفقاً لإحصاء عام ٢٠٠٤ نحو أربعة آلاف، وينشط قسم من السكان في التجارة الحدودية مع ليبيا.

كان السائق يقود بجنون، وكنت أطلب منه تخفيف السرعة بين الفينة والأخرى، لكن لطفي مال علي مناجياً:

ـ هؤلاء مهربون وهكذا اعتادوا أن يسوقوا وسينزعج الشاب إذا واصلت طلب تخفيف السرعة.

فملت في مقعدي وبدأت أقرأ دعاء السفر.

دخلنا البلدة نحو الحادية عشرة ليلاً. كان كامل يبحث عن بيت معين لنبيت مع صاحبه على أن يأخذنا في الصباح، إلا أننا لم نتمكن من العثور على الرجل الذي كان سيرتب لنا الأمر.

حاول كامل أن يكون الشخص الذي سيرتب دخولنا من الجانب الليبي قادراً على الدخول في تلك الساعة كي لا نبيت في وضع صعب، لكن الوقت كان قد تأخر كثيراً.

بعد وقت لا بأس به من الانتظار قرر مضيفونا أن نذهب إلى دار الشباب التابعة لبلدية ذهيبة. فلا فنادق ولا نزل في هذه البلدة الصغيرة.

دخلنا دار الشباب فألفينا مجموعة من الأفارقة الفارين من ليبيا، كان بعضهم جرحى لكن التونسيين كانوا يعالجونهم ويعاملونهم برفق.

دخلنا غرفة واسعة تنام فيه مجموعة من الأفارقة. اتخذ كل منا مكاناً داخل الغرفة تأهباً للنوم.

لكننا ما إن التحفنا البطانيات التي أعطانا إياها قيّم دار الشباب حتى تراقصت صور «نزل الجنوب» في تلك اللحظات في أذهاننا كأنها حلم براق...، لكنه بعيد.

في الصباح الباكر استيقظت كأنني في حلم. فعن يميني لطفي يغط في نوم عميق، وعن يساري مجموعة من الغانيين، وفوقي لافتات تحث الشباب على ممارسة الرياضة...

عجيب أمر الصحافة، تدخل المرء عوالم لم يتوقعها مهما توثب خياله.

استعدت توازني فوراً متذكراً أني في الركن القصي من تونس داخل دار الشباب في طريقي إلى الزاوية.

تناولنا وجبة الإفطار في دار الشباب، وكان كامل غارقاً في الاتصالات محاولاً ترتيب خروجنا السريع من هذه البلدة التي لا تواري أي غريب.

خرجنا من دار الشباب وتربضنا في أحد المقاهي القريبة في انتظار قادم.

فجأة جاء شاب ربع القامة ممتلئ الجسم تذكرك سحنته ولكنته بتجار المدن الحدودية. فلكنته مزيج من الليبية والتونسية، وحركاته الحذرة تعطيك دليلاً على أنه تعود العمل بطرق ترى سلطات الحدود أنها غير قانونية. أخذنا الشاب إلى بيته وحول أمتعتنا لسيارة رباعية الدفع كانت رابضة داخل منزله، وأمرنا بالركوب بسرعة.

بدا الرجل ـ وهو يستعد لأخذنا ـ خائفاً مضطرباً ملتاع الفؤاد، مما جعل حالته النفسية تنتقل إلينا آلياً.

جلست أنا ولطفي وعمار في المقاعد الخلفية، بينما انطلقت السيارة تشق شوارع ضيقة أسلمتها إلى منطقة جبلية،

وسار سائقها بجنون. كان يتحدث على الهاتف مع آخر، ويسأل عن طبيعة الطريق وهل فيها رصد.

صرخ لطفي مؤشراً بإصبعه يمينا:

ـ أستطيع أن أرى حرس الحدود بوضوح!

لكن السائق واصل السير متحدثا مع الشخص الذي يراقب له الطريق. استمرت الرحلة نحو ربع ساعة ثم رأينا سيارتين عابرتين للصحراء تنتظراننا. ترجل من إحداهما رجل أربعيني ودس ورقة ١٠٠ يورو في كف السائق الذي خطف الورقة بسرعة، ثم عاد إلى سيارته كاراً راجعاً، واختفى في لمح البرق كأنه أحد غيلان الصحراء.

ركبنا في السيارتين الأخريين فالتفت إلى كامل سائلاً:

ـ هل نحن في ليبيا؟

ـ نعم، أخيرا نحن هنا.

شعرنا بسعادة غامرة، حيث أحسسنا أن جزءاً من المهمة قد أنجز بنجاح، فها نحن على أديم ليبيا.

ورغم أن الحدود بين تونس وليبيا حدود نفسية أكثر مما هي حدود بين شعبين، فقد بدت لي ليبيا مختلفة نسبياً عن تونس في بيئتها وعمرانها.

ركبنا السيارتين اللتين كانتا تنتظراننا وأسرعنا في الطريق الجبلي قاصدين الطريق المسفلت القريب. بعد عشر دقائق استوت سيارتانا على الطريق في اتجاه مدينة نالوت.

كنا نشاهد بين الفينة والأخرى حاجزاً رملياً مقاماً على

الطريق فنسأل رفاق رحلتنا عنه فيجيبون: «كلهم ثوار، كلهم ثوار». فعلا بدت المنطقة خاضعة تماماً لسيطرة الأهالي، ولا أثر لرجال القذافي فيها.

التفتُّ إلى كامل وقلت:

- يا أخي، يبدو أن ليبيا ساحرة، فلماذا لم نسمع قط عن هذه الأماكن أو نرها على شاشات التلفاز؟

فرد كامل وهو يداري ابتسامة ثائر يدخل بلاده أول مرة دون إذن من سلطات الاستبداد:

- لأنها ظلت مغطاة بلحاف القذافي طيلة العقود الأربعة الماضية.

أتفهم شعور كامل تماماً، فما ألذ أن تدخل بلاد المستبدين دون أن تستأذنهم، وما أروع أن تتنفس الأرضُ الحريةَ بعد أن حُرمتها أزمانا مديدة!

واصلنا السير في اتجاه نالوت بينما كانت نسمات الربيع تملأ الجو حبوراً وبهجة.

كان ذلك يوم الثالث من مارس، وهي أيام تتجمل فيها مدن الغرب الليبي بربيع جديد يأتي هذه المرة متلفعاً بربيع تحرر الشعوب العربية. يأتي الربيع هذه المرة وقد قرر شباب ليبيا أن يهزوا عرش المستبد كجزء من مسيرتهم المغذة إلى مراتع الخلود.

توقف السائق فجأة قائلاً:

- هذا كان مقراً للشرطة، هجم عليه المتظاهرون في أول يوم وأخرجوا منه أزلام القذافي. بإمكانكم أن تصوروه.

نزل عمار بحماسة شديدة، فهذه أول لقطة ستلتقطها كاميرا الجزيرة من الغرب الليبي دون إذن من القذافي. نزلنا وبدأنا نتمشى في ما كان مقرا للشرطة الليبية.

وقفت أمام المقر وتحدثت عن المظهر ودلالاته باقتضاب، وعدنا إلى السيارة.

كان الطابع العام لشوارع نالوت يوحي بأن المنطقة ولدت من جديد. إذ ما مررنا بشارع إلا ورأينا شعارات الثوار مزبورة على كل جدار. بدت الشوارع مزركشة بشعارات من قبيل:

«يسقط القذافي. نحن لسنا عبيدك! ليبيا حرة والقذافي برة».

كنت أتأمل الشعارات مفكراً في معاني الحرية، وكيف تستيقظ فجاءةً فتملأ صدور أمة ظن كثيرون أنها استكانت للضيم إلى الأبد.

عاد بي شريط الذكريات إلى انطباعاتي عن زيارتي لليبيا قبل أقل من أربعة أشهر. كان الانطباع العام لدي ـ وأنا أقلع من مطار طرابلس يوم الرابع من ديسمبر ٢٠١٠ ـ أن الشعب قد نام عن ذَحْلِهِ(٢)، وأنه لن يستيقظ من سباته قريباً، بلْه أن يهز عرش القذافي.

لكن الأسابيع الأولى من عام ٢٠١١ أثبتت أن الشعب الليبي ـ والعربي عموماً ـ شعب حي تواق إلى التحرر

---

(٢) الذحل: الثأر. يقال: نام عن ذحله أي عن ثأره.

والانعتاق وأن العناصر المعجلة بحركة التاريخ كانت تضطرم داخل المجتمع بهدوء دون أن يرصدها أحد. ألا ما أغرب وأدق حركة التاريخ!

قطع علي تفكيري صوت السائق يقول بغبطة:

- كل هذه المناطق يديرها شباب عاديون من نالوت، برهنوا خلال الأسابيع الماضية أنهم أفضل إدارة من أباطرة النظام.

في مدخل نالوت، كان هناك مرتفع جبلي أخاذ مليء بشعارات الكتاب الأخضر. توقفنا لنصور المشهد الذي بدا قلقا وصارخ الدلالة.

فالشعارات المحفورة في مدخل المدينة بخط أخضر أنيق كانت تقول:

«البيت لساكنه/ الديمقراطية خدعة الجماهير/ اللجان في كل مكان/ البيت لساكنه/ من تحزب خان/ التمثيل تدجيل».

وقف كامل التلوع يتأمل نفس الشعارات التي فتح عينيه على الدنيا ليجدها أمامه. ها هو الآن يتمشى في الثانية والأربعين من عمره. درس الطب وسافر وتخرج من الجامعات البريطانية وتزوج وأنجب، لكن نفس الشعارات ما زالت تحكم ليبيا، وما زال نفس الرجل متربعا على صدور بني قومه.

التفت إليّ قائلاً:

- صورني يا أحمد...

- ألا تخشى أن تقع الصور في أيدي الأعداء؟

ـ صورني ولا عليك..

قالها بحزم، وبدأ يلحن نشيد الاستقلال:

«يا بِلادي بجهادي وجلادي ادفعي كيد الأعادي والعوادي

..واسلمي!

اسلمي طول المدى إننا نحن الفدا..

ليبيا، ليبيا، ليبيا!»

أحسست بأن كل عرق من جسمه يرتل النشيد بخشوع! فهاهو ذا يدخل بلاده رغم أنف المستبد الذي حرمه الحرية والكرامة، لكنه يدخلها من باب خلفي حاملا معه فريقا إعلاميا قد يكون شاهدا على ما قد تقترفه يد المستبد في حق شعبه..

لذلك أحسست أن الرجل لم يعد يبالي في هذه اللحظة بالاعتقال أو الاستشهاد...

جلس كامل يرتل النشيد الوطني، وهو يرنو إلى الحاجز الترابي الذي وضعه الثوار قرب شعارات الكتاب الأخضر عند مدخل الطريق، في مشهد يشي بأن الأجيال التي رباها النظام على هذه الشعارات لم تؤمن بها قط، وأن اللحظة البوعزيزية في نسختها الليبية قد ولدت، ولن تعود الأمور إلى عهدها السالف حتى يبعث نبي جديد من مكة أو يرجع النعمان إلى الحيرة.

تحركنا باتجاه دار الضيافة التي كانت عبارة عن دار فسيحة تتألف من طابقين مع مدخل واسع. اعترضنا عند

مدخل الدار رجل عريض المنكبين، واسع الصدر، متشحاً بسلاح ناري. فتح الباب قائلاً بلهجة أهل الجبل الغربي:

ـ أهلا وسهلا.

في الساحة الداخلية لدار الضيافة استقبلنا مراد زكْري. كان شابا قمحي اللون، مدور الوجه، ذا لحية كثة، يرتدي ثوباً رمادياً، ويحمل بيسراه كلاشنكوفاً. ورغم السلاح الذي يتشح به مراد فإنك لا تبدأ الحديث إليه حتى تلمح الطيبة والليونة وكرم المنبت في تضاعيف حديثه، وهي خصال نبيلة يبدو أن عامة أبناء الشعب الليبي يشتركون فيها.

قادنا إلى داخل دار الضيافة الرسمية في نالوت، فلاحظت أنها مجهزة بطريقة توحي بأن كبار القوم كانوا يطوّفون بها.

تقدم مراد زكْري أمامنا مرحباً قائلاً:

ـ هذه الدار مما استعاده الناس هنا من ثروتهم المنهوبة.

فالتفتُ إليه تالياً:

ـ كم تركوا من جنات وعيون، وزروع ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين.

خلال الدقائق الأولى على وجودنا في دار الضيافة قال لنا مراد إن لدى ثوار نالوت مجموعة من الأفارقة يشتبهون في أنهم من مرتزقة القذافي، وسأل إن كنا نود تصويرهم أو إجراء مقابلة معهم، فعبرنا عن استعدادنا لذلك، ثم تحركنا باتجاه مركز للشرطة يسيطر عليه الثوار كان الأفارقة محتجزين داخله.

ما إن ولجت المقر حتى وقعت عيناي على مشهد هزني كثيراً.

رأيت شاباً أسود السحنة نحيف الجسم، وقد شدت يده اليمنى مع رجله اليسرى، وشُدّ إلى نافذة حديدية فصار كالمعلق!

ركضت باتجاهه صارخاً، طالباً فك قيده. هُرع إلي رجل أربعيني أبيض اللون شديد الأسر، تبدو عليه مخائل العيش طويلاً في نظام القذافي، ففك وثاقه.

بدأت أسأل الشاب الأسمر عن اسمه وبلده. فعلمت أنه في السابعة عشرة من العمر، وأن اسمه موسى، مالي الجنسية، ولا يتحدث غير لغة الطوارق.

بعد أن هدأت من رُوعه، التفتُ إلى الرجل الأربعيني المسؤول عن المركز وقلت له:

- ألم تثوروا على القذافي من أجل ممارسته لهذه الأفعال؟، أنا أتمنى أن تبنوا ليبيا لا يذل فيها إنسان!، ما الفرق بين النظام الذي ستقيمونه وبين نظام القذافي إذا كانت هذه تصرفاتكم!، كنت متأثراً جداً فتحدثت بطريقة فيها الكثير من الصراحة والانفعال.

رد الرجل بأنه يعتقد أن الشاب من المرتزقة ولا يريد أن يعترف بذلك، لذلك علّقه حتى يعترف!، توسلت إليه أن لا يكرر ذلك فوعدني بخير.

بعد قليل أدخل علينا بقية المجموعة. كانوا حوالي ٢٠ فرداً كلهم من غرب إفريقيا. قام زميلي لطفي وتفقد يدي

أحدهم فرأى فيهما أخاديد تثبت أنه عامل بناء أو لحامةٍ بسيط.

أحسست أن هؤلاء الأفارقة المساكين ضحية لتركيز الإعلام المبالغ فيه على استخدام القذافي لمرتزقة أفارقة، مما انعكس سلباً في سلوك الثوار، فصاروا كلما رأوا رجلاً أسود اتهموه مباشرة بأنه مرتزق مِسعَر حرب.

بعد دقائق من التصوير، خرجنا من مقر الشرطة وكنت مكسور الخاطر في وضعية نفسية صعبة. إذ كانت هذه أول مرة في حياتي أرى فيها إنساناً مهاناً بهذه الطريقة. التفتُّ إلى مراد وقلتُ له بلهجة مفعمة بالتوسّل:

- أتمنى عليك أن تتأكد من أن هذه الأفعال لن تتكرر، فأنتم في مرحلة تأسيسية محددة لما بعدها، ولا بد أن تكون الحرية واحترام الإنسان من أبجدياتها، وإلا فما الفرق بينكم وبين القذافي؟

عبر مراد هو الآخر عن صدمته وألمه، وعدم علمه بالقصة، وتعهد لي بأن لا يتكرر مثل ذلك المشهد الذي ظل يطاردني أياماً.

رجعنا إلى دار الضيافة وأنفقنا سحابة يومنا وسلخنا الليل كله هناك في انتظار السابعة صباحاً، حيث وعدنا مراد بأن يأخذنا إلى الزنتان، على أن نتحرك من هناك في اتجاه الزاوية.

في الصباح الباكر جاء مراد ومعه رجال آخرون وتحركنا في سيارتين.

ركبت أنا وكامل إحدى السيارتين بينما استقل لطفي وعمار الأخرى.

وكان مراد ورفاقه مسلحين بسلاح خفيف، وكان من الممكن أن يخرج عليهم في أي لحظة كمين تابع للقذافي، الأمر الذي يعني الإعدام بالنسبة لهم، وخطراً ماحقاً بالنسبة لنا.

كان مراد جالساً في المقعد الأمامي للسيارة متشحاً بسلاحه، فلمحت بخاطري صورة المجاهد الليبي سليمان الباروني الذي أذاق الإيطاليين سوء العذاب هنا في هذه الوهاد قبل ٩٩ عاماً بالتمام والكمال. كنت، وأنا أنظر إلى مراد ورفاقه وهم يعرضون حياتهم ثمنا لكرامة الليبيين، أكاد ألمح الباروني ملوحاً بيديه محييا، في معركة جندوبة التي هزم فيها الإيطاليين ومنعهم فيها من دخول نالوت. فقد كان العصر الذي عايشه الباروني عصر دحر الاستعمار الخارجي، أما هؤلاء فهم يكتبون عصراً جديداً من مقارعة الأمة للاستعمار الداخلي.

ونالوت معروفة تاريخياً بالمقاومة والشراسة. فقد أرهقت الإيطاليين كثيراً، وتمكن مقاوموها ـ الذين يختزنون داخلهم كل شجاعة طارق بن زياد ـ أن يمنعوا الإيطاليين من السيطرة الكاملة عليها مع بواكير القرن العشرين.

على إيقاع هذه الصور، وبعد حوالي ساعة من السير، جاءني صوت مراد زكْري قائلاً بلكنة مفعمة بالبشارة:

ـ نحن على مشارف الزنتان.

وجدنا في استقبالنا داخل المدينة رجلاً خمسينياً يميل إلى القصر، أسرع الشيب إلى مفرقه بعد مكثه في سجون القذافي سنوات طوالاً؛ عرفناه باسمه الأول فقط: مفتاح. كان حلو الشمائل، كريم الضيافة، يحمل بين جنبيه كل خصائص الشخصية الليبية الثائرة.

أخذنا مفتاح إلى أحد البيوت وسط الزنتان، فلاحظت لحظة دخولنا سيارة عسكرية عليها سلاح ثقيل داخل الحائط. كان أول سلاح ثقيل نراه بيد الثوار.

كان رفقة مفتاح شاب عشريني اسمه إبراهيم، وكان يسهر على خدمتنا بكل كرم وأخوة. اصطحبنا مفتاح إلى وسط المدينة لنطلع على الطابع الجديد للبلد، بعد أن انحسر عنه حكم القذافي لأول مرة منذ اثنين وأربعين عاماً.

تحركت بنا السيارة في اتجاه أحد مقار اللجان الثورية التابعة للقذافي، كان قد أحرق بالكامل في أيام الثورة الأولى. جلس مفتاح يقود السيارة وجلست بجنبه، وفي اللحظة التي توقفنا فيها أمام مقر اللجان الثورية قال مفتاح بحماس:

- بعد هذه المحطة سآخذكم إلى مكان اعتقال مجموعة من الأفارقة نعتقد أنهم من المرتزقة.

فتحت باب السيارة، ثم نزلت معرضاً دون أن أجيب.

ترجلت وتحدثت أمام الكاميرا عن إحراق مقار اللجان الثورية في المدينة، ثم عدت إلى السيارة، فلاحظت أن مفتاح وجد عليّ بعض الموجدة لعدم تعاطيّ الإيجابي مع مقترح تصوير الأفارقة. فبدرني بعتب ممزوج بمزاح:

- لماذا أنت منزعج ولا تريد أن تصور المرتزقة...؟ هم أفارقة ولا يوجد فيهم موريتاني!

حاولت أن أشرح له سبب إعراضي وما رأيته في نالوت، لكنه لم يقتنع، فالليبيون يومها كانوا يتميزون غيظاً، وينظرون إلى كل إفريقي على أرضهم نظرة مترعة بالريبة والضيق.

أثناء الأخذ والرد بيني وبين مفتاح، شق الهدوءَ المخيِّم صوتُ المؤذن منادياً لصلاة الجمعة. كانت جمعة الرابع من مارس ٢٠١١.

حاول مفتاح أن يقنعنا بأن نبيت الجمعة في الزنتان عله يرتب لنا دخول الزاوية بطريقة أكثر أمناً، لكننا شرحنا له تحرقنا لدخول الزاوية في أسرع وقت نظراً للقتال الدائر فيها. حاول أن يشرح لنا أن اليوم يوم جمعة، وهو أنسب يوم لتجمع الناس إن كنا نرغب في رؤية الزنتان بعد التحرر...

كان مفتاح يحاول إقناعي وكنت مشدوها أرقُبُ الشبابَ الراجلين في طريقهم إلى المسجد لصلاة الجمعة.

لقد غيرت الجُمَعُ والجوامعُ وجهَ العالم العربي.

كانت أيام الجمع في العالم العربي أياماً خاملة هادئة. يستيقظ فيها ضباط المخابرات مثلُوجِي الأفئدةِ في وقت متأخر باعتبارها عطلة رسمية يذهبون فيها إلى ضياعهم لاهين، بينما يتركون الناس معلقين في المسالخ.

لقد تغير كل ذلك، وأصبح زعماء العرب لا ينامون ليلة الجمعة ولا يومها فَرَقاً مما تحمله لهم حُبْلى الجُمع. أصبح

كل مستبد يقضي ضحوة الجمعة مرتعدَ الفرائص خائفاً من أن تجرفه الصيحة الخالدة:

«الشعب يريد إسقاط النظام!».

أصبحت هذه هي لازمة الجُمَع بدل أن كان منبرها فرصةً للدعاء لـ«ولي أمر المسلمين!».

لقد فتحتُ عيني على هذه الدنيا فوجدت الشعائر الإسلامية الجماعية الكبرى ـ مثل الجمعة ورمضان والتراويح والحجّ ـ ذاوية لا روح فيها، لكن الأيام بدأت تعيد المعاني للكثير منها، مما أضاء الجانبَ الثوري للدين الإسلامي الذي كاد يُطمَرُ مختفياً خلف عاديات القرون.

شرحنا لمفتاح ضرورة سفرنا تواً إلى الزاوية، فالأخبار الواردة منها تفيد بأن مجزرة ترتكب هناك بعيدا عن أعين العالم. وكان الحس الصحافي والإحساس الإنساني يدفعاننا إلى التحرك باتجاهها في أسرع ما يمكن.

أخذنا مفتاح في سيارته الخاصة، وكان كامل قد رتب من سيستقبلنا في نقطة معينة قريبة من منطقة ككلة الواقعة على بعد ٤٥ كيلومتراً شرقي الزنتان.

(٥)

في هذه اللحظات، كانت سيارة بيضاء اللون متوسطة الحجم تشق شوارع الزاوية بهدوء. كان يجلس وراء مقودها رجل خمسيني، قصير القامة ممتلئ الأعضاء، اسمه منير، وكان يتربع عن يمينه في المقعد الأمامي رجل أربعيني، متوسط القامة قوي البنية متماسك الأعضاء، يعرف بعلاء الزاوي، ـ اسمه الحقيقي صلاح محمد علي أبو عوبة ـ بينما كانت امرأة مسنة مستلقية بهدوء في المقعد الخلفي للسيارة. لم تكن تلك المرأة غير والدة منير بسيم أخذها معه للتمويه حتى لا توقفه الكتائب، ولم يكن علاء ومنير غير الرجلين اللذين أسندت لهما أخطر مهمة: مهمة إدخال فريق الجزيرة إلى أكثر نقطة توتراً يومها في ليبيا... الزاوية.

تحركنا تاركين الزنتان وراءنا. كان الطريق جبلياً ساحراً تكثر فيه أشجار الزيتون، فاندفع مفتاح بحماس شارحاً الوضع في مدينة الزنتان بعد انحسار سلطان القذافي عنها. «أصبحت الزنتان أكثر راحة وأمنا والناس تغيروا. كل شيء أصبح أفضل من ذي قبل، رغم الحصار المفروض على المدينة وضيق ذات

اليد. يقوم شبابنا بالسهر على الأمن وتنظيم سير الحياة، وهم أكفأ بكثير من إدارة القذافي».

كان مفتاح يتابع حديثه، فقمت بتشغيل كاميرا هاتف «الآي فون» المحمول الذي معي وبدأت في تصويره. كنت أسأله عن رأيه فيما يجري في البلاد وعن رؤيته لليبيا المستقبل. فكان يجيب على أسئلتي، وأنا أتطلع للطفي وعمار في المقاعد الخلفية وهما يعلقان بين الفينة والأخرى على جمال المنطقة التي كنا نغذ السير في جنباتها. فالطريق يشق سلسلة جبلية تتوسطها مزارع مترامية هنا وهناك، يخيل للناظر أنها ظلت متوارية وراء هذه الجبال حياء من الاستبداد الجاثم، وأنها بدأت تخرج منداحة من عالم النسيان بعد أن هبت نسائم ربيع التحرر.

كنت أستمع إلى حديث مفتاح، متمتعاً بنسائم المزارع والبساتين التي تداعب وجهي من نافذة السيارة.

ظل كامل على اتصال دائم بعلاء الزاوي عبر الهاتف. وكانا يحاولان إدخالنا إلى الزاوية عن طريق مدينة ككلة المتاخمة للزنتان. لكن التحدي يكمن في أن بوابة ككلة غير مأمونة، نظراً لأن الكتائب كانوا يضعون عليها حواجز فجأة ثم يختفون فجأة ثم يرجعون، وهكذا دواليْك. لذلك كان من الضروري أن تكون أمامنا سيارة استطلاع وعلى مسافة معقولة بشكل دائم.

كان مفتاح لا يزال مسترسلاً في حديثه وأشواقه إلى يوم يستيقظ فيه الليبيون فيجدون عالماً لا قذافي فيه، لكنه توقفً عن الحديث فجأة قائلاً:

ـ ها قد وصلوا.

رفعت بصري فرأيت سيارة بيضاء اللون رابضة على الجانب الأيمن من الطريق.

كانت أول مرة أرى فيها منيراً وعلاءً. ذيْنك الرجلين اللذين سيبرهنان خلال الأيام القادمة على شجاعة وحب لبلدهما عز نظيرهما.

ترجلنا من السيارة، فدار حديث مقتضب بين مفتاح وكامل من جهة، وبين علاء ومنير من جهة أخرى. ثم استقر الرأي على أن يرجع علاء ومنير لتمشيط المنطقة قبل أن نتحرك سوية. بعد نصف ساعة عاد الرجلان مؤكدين أن «الطريق سالك» ويمكننا الانطلاق.

تحرك علاء ومنير أمامنا، وركبت أنا مع الشاب إبراهيم، وظل لطفي وعمار مع مفتاح. كانت لحظات مشحونة بالتوتر وتوقع الأسوأ.

من يدري؟ قد نرى الآن كتائب القذافي تنتظرنا عند بوابة ككلة!

كانت المسافة بيننا وبين سيارة علاء ومنير حوالي نصف كيلومتر، وكان الاتفاق أنه إذا ظهر أي كمين أمامهم فسيتصلون هاتفياً لإشعارنا بذلك، على أن نكرّ راجعين في اتجاه الزنتان، ورغم إمكانية رمينا بالرصاص، فقد كان ذلك الخيار شبه الوحيد.

كانت المسافة ما بين النجاح والفشل والموت والحياة في تلك اللحظة مجسدة في خمسة كيلومترات.

عبرنا بوابة ككلة بسلام شاقين شوارعها المتعرجة بصعوبة إذ كنا نحسب الكتائب ستظهر عند نهاية كل شارع من شوارعها. تقع ككلة على بعد ١٢٠ كيلومتراً جنوب غربي طرابلس، وتكثر فيها أشجار الزيتون والنخيل وهي منطقة جبلية ساحرة، يشتهر أهلها بالكرم وحسن الضيافة، إلا أننا عبرناها بنفسية غير مستقرة ففاتنا الكثير من تملي جَمالها.

توقفنا خارجها، فنزل عمار ولطفي من سيارة مفتاح، ونزلت أنا من سيارة إبراهيم وركبنا كلنا في سيارة منير بعد أن ترك الحاجة ـ أم علاء ـ في أحد المنازل داخل ككلة. انطلق بنا منير وعلاء، ورجع مفتاح ورهطه قافلين بارتياح إلى الزنتان بعد أن ساعدونا في اجتياز المنطقة.

كانت الزاوية غير بعيدة، لكن الدخول إليها ليس بالأمر السهل. فالطريق الساحلي السريع ملغوم بنقاط التفتيش، لذلك انحرف منير ـ وهو الخرّيت الذي قتل هذه الأرض جيئةً وذهاباً ـ يساراً في طريق غير معبد داخل مزارع. واصلنا في هذا الطريق حوالي عشرة كيلومترات، لكننا ما إن اقتربنا من النقطة التي سندخل منها على الطريق الرئيسي حتى رأينا سيارات شبه عسكرية تسير في اتجاهنا.

رجعنا القهقرى مُغِذّين وجِلِينَ، وقادنا منير إلى بيت صغير داخل مزرعة له في تلك المنطقة وأدخلنا فيه قائلاً:

ـ لا تتحركوا من هنا أبداً حتى أرجع إليكم.

التهمت الحجرة المظلمةُ أربعتَنا. . .

كانت مظلمة غير مفروشة، ولها باب واحد ونافذة. إذ

من الواضح أن منيراً يستخدمها مخزناً في مزرعته. جلسنا داخل الحجرة، بينما ذهب منير وعلاء لاستجلاء الطريق. كنا ننظر من ثقب صغير في الباب لنرى ما يدور في الخارج؟

كنا نريد أن نعرف هل اقتربت السيارات؟، هل اعتقلت السيارات منيراً وعلاء أم ماذا؟، كنا نرى أشخاصا يقتربون منا!، كانوا كلما اقتربوا أحسسنا أن قلوبنا تكاد تبلغ حناجرنا. وبعد عدة دقائق اختفى الرجال ولم نر أثرا للسيارات!

كانت تلك واحدة من اللحظات الصعبة. هل نحن أخيراً أمام كتائب القذافي وبهذه السهولة؟، لقمة سائغة في إحدى المزارع؟

بعد دقائق من التوتر والخوف، اتضح لنا أن أصحاب السيارات رعاة إبل، لا غير.

وضاقت الأرضُ حتى كاد هاربُهم
إذا رأى غيرَ شيءٍ.. ظنّه رجلا![(١)]

بعد نحو نصف ساعة عاد منير وعلاء وتحركنا في نفس الاتجاه.

واصلنا المسير داخل المزارع في اتجاه الطريق الرئيسي إلى أن وصلناه. لكن التحدي كان يكمن في أنه ما زال علينا أن نخترق إحدى نقاط التفتيش. كيف يمكن ذلك؟

سار منير بسرعة جنونية، وكنت أنظر إلى مؤشر السرعة يرقص ما بين ١٦٠ و١٨٠ كيلومتراً للساعة.

---

(١) البيت لأبي الطيب المتنبي.

ثم تجاوزنا نقطة التفتيش بسلام. رأينا العساكر على الطريق لكنهم لم يوقفونا. بعد تجاوز نقطة التفتيش بقليل انحرفنا يساراً إلى طريق داخل المزارع. كنا نسأل منيراً بين اللحظة وأختها:

ـ هل نحن في الزاوية؟

فيجب بهدوء:

ـ قريباً! قريباً إن شاء الله.

كانت السيارة تغذ السير بين المزارع التي بدت مجسدة لجمال الربيع في هذه المنطقة من ليبيا. كانت الأزهار تخرج رؤوسها من أكمامها عذارى متلفعات بحيائهن كأنهن يحييننا لهذه الزيارة الخطرة في هذا الوقت العصيب!

بعد حوالي ربع ساعة ـ بدا لنا دهراً ـ من السير في الطرق الملتوية، صاح منير بنبرة مفعمة بالسعادة:

ـ ها هي ذي الزاوية!!.

كانت لحظة من لحظات السعادة الغامرة تشبه لحظة دخول الفاتح عاصمة الأعداء.

شوارع المدينة بدت شبه خالية، وسط غياب شبه كامل لأي طرف أمني. فلم نر حضوراً لافتاً لرجال القذافي ولا للثوار، فالمدينة كأنها مدينة أشباح. ظل منير يسير بنا في طرق ملتوية حتى لوح بيديه قائلاً:

ـ هذا هو المربع! هذه ساحة الشهداء.

لمحنا ساحة صغيرة عليها حواجز ترابية من معظم

الجهات يطل عليها مسجد وفندق. ولمحنا عصبة من الرجال المسلحين.

توقفت السيارة أمام باب الفندق، بينما كان المسلحون ينظرون إلينا نظرات نهمة، فانطلق أذان المغرب مبدداً السكون القلق الثاوي على المدينة، ومخلفا سكينة بدت شوارع المدينة الضيقة أحوج ما تكون إليها.

ترجلنا من السيارة فالتفتُ إلى لطفي قائلاً:

ـ أين المظاهرات؟، أين الناس؟، المكان موحش وخال؟

فهز كتفيه معبراً عن نفس الشعور.

في هذه اللحظة قال لنا علاء بصوت هامس محاولاً أن لا يسمعه غيرنا:

ـ لا تنسوا ما قلت لكم. عليكم أن لا تثقوا بأي أحد هنا إلا من قدمناه لكم. فالجواسيس كثر والأمور مختلطة.

وفجأة خرجت حفنة من الشباب من بهو الفندق مرحبين، ثم سأل أحدهم:

ـ من أي مؤسسة إعلامية أنتم؟

ـ نحن من التلفزيون النرويجي.

فالجزيرة في تلك الأيام كانت أكبر عدو للنظام القائم، ثم إن الزميل المصور عمار الحمدان يحمل الجنسية النرويجية، وكانت هذه الرواية أقرب المتاح إلى المعقول.

بدا الفندق ـ الذي كان الثوار قد سيطروا عليه واتخذوه مكانا لنشاطهم ـ موحشاً ومظلماً، ومسلّحَ المداخل

والمخارج. إذ لمحت ـ لحظة دخلنا إليه ـ سلاحاً ثقيلاً مضاداً للدبابات عند مكان الاستقبال. أخذنا الشباب المشرفون على الفندق إلى الطابق الخامس.

كان من بين الشباب الذين استقبلونا شاب طلق المحيّا كريم المعشر مفعماً حيوية اسمه ربيع. كان عشرينيا، حلو الشمائل، هادئ النفس، طيب الحديث. بدأ يحدثنا عن أسباب التحاقه بالثورة، وأن ذلك ليس لدافع مادي، فوضعه المادي ممتاز ولديه عمل مستقر، لكنه انتفض لكرامة أمته المجروحة.

ما إن بدأنا التعاطي مع الثوار حتى لاحظنا نقص التنظيم لديهم. فقد كان كل يصدر أوامره بالطريقة التي يراها، وكلٌّ أميرٌ في مسلاخ جندي. بعد أن اطمأن بنا المقام في الغرفة رقم ٥٠٥، دخل علينا رجل أشيب أقنى الأنف جعد الشعر يوحي لك منظره بأن الأيام لم تعامله برفق. وقف عند الباب ممتشقاً سلاحه قائلاً بلكنة عسكرية:

ـ سأكون في حراستكم الليلة، لكن لا يتحركنّ أي منكم خارج الغرفة، إذ إن لدي أوامر بإطلاق النار على كل من يتحرك ليلاً!.

همس أحد الزملاء: «يا ساتر»، والرجل يغلق الباب مغادراً الغرفة.

كنت مرهقا فنمت بهدوء أصبح مجالا لتندر رفاقي في الصباح، فقد حدثوني أن إطلاق النار لم ينقطع طول الليل.

(٦)

مع بواكير الصباح الأولى استيقظنا في قلب مدينة الزاوية. وهي مدينة متوارية وسط البساتين الأخاذة والمزارع الجميلة. تقع الزاوية على بعد ٣٠ ميلاً غرب طرابلس، ويطل الجزء الشمالي منها على البحر الأبيض المتوسط. للزاوية تاريخ طويل مع قراع الظلم. إذ يتفق المؤرخون على أنها كانت مركزاً «من أهم مراكز الجهاد الليبي»[١] ضد الاستعمار الإيطالي.

يبلغ عدد سكان المدينة المتوارية بين المزارع ربع مليون إنسان. ويضج الخيال الجمعي لمواطنيها بتاريخها النضالي الطويل مع الإيطاليين. فقد لقن أبناؤها الكولونيل الإيطالي رودولفو غراتسياني دروساً في مجال الصبر و«فقه الانتفاضات»، بعد أن حاصرهم بواكيرَ القرنِ الماضي، مما أدى في النهاية لقصفها على يديْه بالمناطيد من الجو، لتنال شرف أول مدينة تقصف من الجو[٢].

(١) خليفة محمد التليسي، **معجم معارك الجهاد في ليبيا ١٩١١-١٩٣١** ([د. م.]: الدار العربية للكتاب، ١٩٨٣)، ص ٢٥٣.

(٢) <http://www.centennialofflight.gov/essay/Air_Power/Pre_WWI/AP1.htm>.

كان جنود القذافي يقصفونها وأبناؤها ينتفضون كأن لهم مع مطلع كل قرن جديد موعدا مع ثورة جديدة!، فقد أخضعها الإيطاليون قبل ٩٩ عاماً من لحظة انتفاضتها هذه، إذ دخلوها في الرابع من ديسمبر عام ١٩١٢، لكنها انتفضت وأخرجتهم بعد ذلك بثلاث سنوات!

في حدود السابعة صباحاً استيقظنا. كان ذلك أول صباح لي في ميدان حربي، بعد استيقاظنا بقليل جاء مضيفونا يركضون صائحين:

- انزلوا الآن!، هذا المكان أصبح غير آمن.

ركضنا وراءهم ونزلنا إلى باب الفندق. عند بابه وجدنا المعركة في بداياتها. كانت مجموعة من الثوار تتمركز أساساً عند المسجد الموجود على بعد ١٥٠ متراً، عن يسار بهو الفندق، بينما كان بعضهم في جنبات الساحة التي يطل عليها المسجد والفندق، والمعروفة بساحة الشهداء. كان الثوار لا يسيطرون من الزاوية إلا على هذه الساحة. دخلنا الساحة وبدأنا التصوير، ثم وقفت أمام الكاميرا وبدأت أتحدث:

- نحن داخل ساحة الشهداء حيث تجري الآن معركة ضارية بين الثوار والكتائب. من هناك، من تلك الناحية، تحاول الكتائب التقدم واحتلال الساحة، لكن الثوار يتصدون لها. هذه بعض الآليات التي غنمها الثوار خلال المعركة الماضية.. ثلاث سيارات جيب..

في هذه اللحظة بدأ القصف من جهة الدبابات الرابضة شرق الساحة، فتوقفت عن الحديث وتراجعنا تجاه باب الفندق احتماء من القصف ونيران القناصة. كانت حوالي ٢٥

دبابة من كتائب القذافي تحيط بالساحة محاولة الدخول إليها لإنهاء الثورة التي اشتعلت قبل أسابيع.

تجمعنا عند باب الفندق محاولين الذهاب إلى الغرفة المتاخمة للمسجد، أخذت العملية بعض الوقت، ثم بدأنا التحرك في اتجاه المسجد تحت وقع الرصاص..، كل أنواع الرصاص المضاد للدبابات والأفراد.

شاهدت مشاهد تشعرك بأن الحرب فرضت فرضا على الليبيين. إذ شاهدت في بهو الفندق شابا يحمل قاذفة «آر.بي.جي»، لكنه لا يعرف كيف يطلق القذيفة. فوقف أحد الشباب على عجل واصفاً له بسرعة كيف يضغط الزناد، وكيف يثبت السلاح على كتفه. كان مشهداً مضمّخاً بالمعاني، لم أتمالك أن صورته بالكاميرا الصغيرة التي كانت بيدي.

ركضنا في اتجاه المسجد تحت وقع الرصاص ودخلنا الغرفة المتاخمة له. كانت غرفة صغيرة لا تتجاوز ثمانية أمتار مربعة. كان ما بداخلها يشي بأنها كانت تستخدم مخزناً للمسجد، غير أن الثوار حولوها إلى مستشفى ميداني أثناء المعركة.

كان الرصاص يلعلع في كل الاتجاهات، وبين الفينة والأخرى يدخل جثمان مسجى أو جريح يئن.

في الغرفة الموالية لنا، غرفة إسعاف أخرى. بعد حوالي ربع ساعة من وصولنا، جاء أحدهم طالباً من الإعلاميين الدخول إلى الغرفة الموالية لتصوير الجرحى. انتقلنا من غرفتنا إلى الغرفة الموالية، لكن الأطباء كانوا يفضلون دخول الكاميرا فقط، فوقفت عند الباب بينما دخل عمار للتصوير.

كان آخر القتلى شاباً في الثامنة عشرة من العمر، رماه قناص فأودع رصاصة بين عينيه. كان عمار يصور المشهد بينما كنت أقف بجنب باب الغرفة ناظرا إلى الساحة التي تدور فيها معركة شرسة.

خرج عمار وعدنا إلى الغرفة الأولى بعد تصوير عدة مشاهد. بعد دقائق عاد أحد الثوار طالباً منا تصوير مشهد آخر، فالتفتُ إلى عمار طالباً منه التحرك فرأيته يبكي بكاءً مراً. أشار إليّ بيده أنه لا يستطيع التصوير بعد أن صور الشاب المصاب بين العينين، كما صور إمام المسجد الذي استشهد أمام عدسة كاميراه. كان الجو مشحوناً وصعباً ومفتوحاً على كل الاحتمالات.

كان معنا في نفس الغرفة ثلاثة صحافيين بريطانيين قابلناهم الليلة الماضية في الفندق الذي قضينا فيه ليلتنا، وكانوا محصورين لا يعرفون طريقا إلى الخروج. رجلان وامرأة. ثلاثتهم من محطة سكاي نيوز. كان الرجلان في حالة نفسية صعبة، بينما كانت المرأة ـ واسمها أليكس كراوفورد ـ متماسكة رابطة الجأش. لاحظت أن زميلها الذي كان مضطجعاً إلى جنبي يرتعد فرقا كأن به حمى النافض!، فأردت التخفيف عنه فملتُ عليه ـ والرصاص يئز أزيزاً خارج غرفتنا والكتائب يتوقع أن تدخل في أي لحظة ـ قائلاً:

ـ ما رأيك أن نطلب بيتزا؟

قلتها له محاولاً التخفيف عنه.

ما زاد الرجل على أن قطب جبينه مرتعداً قائلاً:

ـ بيتزا؟ بيتزا؟.

فأعدت الجملة ملاحظاً أن المزحة ثقيلة، لكن الرجل لم يزد على ذلك.

بعد قليل مال عليه لطفي سائلاً إياه:

ـ ما هي خطوتك القادمة؟

فرد الرجل بصوت مخنوق قائلاً:

ـ إني قاتلٌ نفسي!

استمرت اللحظات تدب كثيفة قلقة جامدة، حاملة في ثناياها المتوقع المجهول. فصوت الرصاص يرتفع والتكبير يتعالى من المسجد، ووسط ذلك يدخل جريح أو قتيل.

أُدخل علينا جندي أسير من كتائب القذافي أحرق الثوار دبابته وأخرجوه منها قسراً. كان يصرخ ألماً من إصابة في قدمه. نظرت إلى قدمه فألفيتها ممزقة من الأسفل لإصابتها بقذيفة بينما كان صراخه لا ينقطع. كان يصرخ مستغيثاً:

ـ لا أريد أمي أن تبكي عليّ...، ارحموني! أنا جندي مأمور! ارحموا دموع أمي.

أثناء ذلك سارع الطبيب جمال بدّه إلى علاجه برفق وحنان، مضمداً جراحَه مهدئاً من رُوعِه، وكان آخرون يوبخونه مقلقين إياه بأسئلة من قبيل:

ـ ألا تستحي من قتل الأبرياء؟ ألست ليبيا؟ لماذا تقتل شعبك؟ ما الذي يدفعك إلى ذلك؟

كانت أسئلة صعبة في لحظة حرجة، لذلك لم يرد الجندي على أسئلة التقريع.

أثناء ذلك دخل الشاب الذي أسر الجندي، وكان مظهره لافتاً للانتباه. إذ بدا نظيف الهندام، هادئ الحديث، يحمل كاميرا، ويتحدث بثقة عالية رغم صغر سنه. كان يخاطب الجنديَ بهدوء قائلاً:

ـ أنا الذي سحبتك من الدبابة، ولا عليك فلن يؤذيك أحد، قل لي فقط كم عدد الدبابات؟، ومن أي جهة قدمتم؟، وما اسم قائدكم؟.

لكن الجندي كان في حالة نفسية يرثى لها.

ثم قام رجل شديد السمرة يرتدي قميصاً داكناً، ذو لحية كثة، واقترب من الجندي وأخرج وثائق شخصية من جيبه، وتفحصها ثم ناولني إياها.

كنت على الخط في تلك اللحظة مع مدير التخطيط الإخباري محمد داود.

ـ الاسم فلان بن فلان، تابع لللواء المعزَّز ٣٢، التابع لكتائب خميس القذافي. المعركة مستمرة، وقد رأيت بأم عيني ـ حتى اللحظة ـ أسيراً وعدة قتلى من الجانبين.

استأذنني محمد داود ليحول الهاتف إلى آخر. فكان إسماعيل الغريتلي ـ الليبي الجنسية ـ على الخط.

جاءني صوت إسماعيل بلكنته الليبية التي أحسستها أكثر من مألوفة في تلك اللحظات:

- اسمع يا أحمد، ما اسم الفرقة التي ينتمي إليها الجندي؟، هل هو ليبي؟، ثم هل أنت متأكد من أنه من الكتائب التابعة لخميس؟

كان محمد داود يفكر في إمكانية أن أتحدث بشكل مباشر على الجزيرة في تلك اللحظة، لكنه انتهى أخيرا إلى أن الحديث قد لا يكون مناسباً نظرا للوضع الأمني ولأن حياتنا في خطر. إذ لو علم القذافي بوجودنا داخل الزاوية لهدها على رؤوسنا دون تردد.

في هذه اللحظات، أخبرني المصور عمار أنه بحاجة إلى الكاميرا الكبيرة، فسارع لطفي إلى الفندق وأتى بها في جو أمني مخيف. كان التكبير يتصاعد من مكبرات الصوت التي على المسجد، حتى إنه يمكن قياس سير المعركة من خلال درجة التكبير.

في إحدى اللحظات سقط الإمام الذي كان يكبر. أصابه قناص من فوق أحد المباني المجاورة فوقع، وظل رافعاً سبابتيه متشهداً حتى توفي أمام أعيننا.

ظل التكبير في تواصل، وظلت المعركة حامية الوطيس داخل الساحة. كنا ندخل ونخرج لنطلع على سير القتال، إلا أننا كنا في معظم الأحيان نتجنب الخروج نظراً لانتشار القناصة الذين أصاب أحدهم الشاب الذي كان يصور للثوار أمام أعيننا. إذ أصابت قذيفة جهاز الحاسوب المحمول لديه واخترقته، ملامسة الجانب الأيسر من بطنه، لكنه لم يصب إصابة بالغة.

(٧)

كانت عائشة بنت عمار جالسة في بيتها الواقع في مقاطعة دار النعيم بنواكشوط. صلتْ الضحى في غرفتها ثم رجعت إلى بهو البيت لتجلس قرب أختي سُعدى بنت الدين التي كانت منشغلة بترتيب بعض الأوراق.

قالت سُعدى وهي تحاول لملمة رزنامة من الأوراق المتطايرة بين يديها:

ـ الدراسة في القسم الإنكليزي صعبة، ولا أدري هل يمكنني النجاح فيها. فردت عائشة ـ وهي تداعب حفيدها الذي يلعب بين يديها ـ قائلة:

ـ لكن أحمد فال حاول إقناعك بدراسة القانون فرفضت ذلك وأصررت على دراسة الأدب الإنكليزي.

ما إن أنهت عائشة الجملة الأخيرة حتى تذكرت أمراً. أخذت الهاتف الذي بين يديها وضغطت رقما مخزنا في ذاكرة الهاتف.

بدأ الهاتف الذهبي الموجود في غرفة متاخمة لمسجد الزاوية المطل على ساحة الشهداء يرن! سحبته من جيبي ظانّاً

أن محمد داود يتصل من غرفة الأخبار، فإذا شاشة الهاتف تصرخ بأن الوالدة على الخط الآخر!

- أهلا أمّنا.

قلتها بصوت مصطنع ناعس!، في اللحظة التي كنت أدس فيها رأسي في ركن الغرفة تحت ركام من صناديق البيبسي حتى لا تسمع أي صوت مريب.

- أمّنا، كيف الحال؟

- بخير والحمد لله.

- أما زلت في تونس؟

- بلى!

- أريدك أن تذهب إلى طبيبي الذي تعرف، وتعرض عليه العقاقير التي أعطاني وتنقل له ملاحظاتي عليها، وهل بإمكانه أن يغيرها لي.

- أبشري، أمنا. سأفعل ذلك. فقط المشكلة أني الآن لست قريباً من مكتب الطبيب، لكنني سأفعل ذلك قريباً بإذن الله.

ثم خاطفتُها الحديثَ وودعتها.

أغلقت الهاتف وأخرجت رأسي من الركن الذي كنت مندسا فيه، بينما كانت هناك جلبة عظيمة عند مدخل الغرفة.

أسير آخر!

كان رجلا خمسينياً، ممتلئ الأطراف، إفريقي الأنف،

يعصب رأسه بخرقة بيضاء. رماه الثوار بين أيدينا، وبدؤوا يسألونه لكنه كان يرفض أن ينبس ببت شفة، رغم محاولات الثوار المتكررة لسؤاله عن اسمه واسم أبيه، ومن أي منطقة هو؟. ظل صامتاً صمت التماثيل محملقاً عينيه في السائلين. أثناء ذلك وقف رجل يرتدي ثوباً رمادياً وبيده سكين طويلة، وهدده ببقر بطنه إن واصل السكوت...

لحظتها عادت بي الذاكرة إلى موسى وهو معلق من قدمه ويده في مقر الشرطة بنالوت. قفزت من مكاني وبدأت أترجى الرجل أن يكف سكينه، وأن يعامل الأسير بلطف.

أوحت لي نظرات الأسير بأنه لا يتكلم، عجزاً لا قصداً. فقد انعقد لسانه فرقا. ذاك ما فهمته من حماليق عينيه وهو يرنو إليّ، فبدأت أترجى الرجل الواقف فوقه أن يتركه حتى يهدأ.

بعد هنيهات، وبعدما هدأ أحد الثوار من رُوعه فاه بكلمات قلقة من قبيل:

- أنا من هنا، من الزاوية..، اسمي فلان بن فلان.

وسط ذلك، قفز أحد الثوار قائلا:

- نعم. ألا تذكرونه؟ كان معنا!، كان يلعب دور الثائر وهو الخائن...، هذا الذي كنا نعطيه الساندويتشات ليوزعها..، لكنه كان يتمالأ مع النظام.

وهي حقيقة لمسناها، فقد كان هناك الكثير من الخوف وعدم الثقة، والاختراق طبيعي في مثل هذه الظروف. فهو شعب أعزل فرض عليه أن يقوم مقام الدولة في أيام.

بعد حوالي ثلاث ساعات من المعارك الطاحنة كان واضحاً أن الميزان بدأ يميل لصالح الكتائب. كنا جميعنا محصورين داخل الغرفة، صحافيون وطبيب وشباب من أنصار الثورة. كان يوجد قرب الباب شاب في الثامنة عشرة من عمره، وبدأ يصيح بفرق عندما أحس قرب دخول الكتائب علينا:

- لقد جاؤوا! ها قد جاؤوا! سيمحون المسجد بالكامل! سيقتلون الجميع!

ثم خرج آخر ونظر فإذا بالدبابة توقفت مباشرة عند باب المسجد.

ساد صمت مترقب داخل الغرفة.

فها هي ذي دبابة كتائب القذافي على بعد أربعة أمتار منا. ترى كيف سيدخلون علينا؟ هل سيدخلون بنفس طريقة الجندي الأمريكي في العراق؟ يدخلون يصرخون ويرمون الرصاص يمنة ويسرة حرصاً على تأمين أنفسهم؟

هل سيُصفوننا هنا أم سيلقون القبض علينا ويأخذوننا معهم إلى معسكرات الكتائب؟

كان الزميل عمار، متشبثاً بجوازه النرويجي طيلة هذه الفترة، ممسكاً بورقة بداخله يريد أن يتلفها وكنت أمنعه من ذلك. كان ذنب الورقة المسكينة أن عليها ختم دخول الدوحة، وذاك هو الدليل الوحيد على أنه يعمل في الجزيرة. أما أنا ولطفي فقد علّمنا الاحتكاكُ بالثوار أننا معروفان نسبياً، ومن الصعب إخفاء من نحن.

أثناء ذلك كان شاب نحيف الجسم أسمر السحنة يصيح بإنكليزية مكسرة كي يفهم الصحافيين البريطانيين:

ـ إنها ليست ثورة، إنها حرب إبادة!

بعد هنيهات من الانتظار والترقب ما زادت الدبابة التي توقفت عند باب المسجد على أن انسحبت بهدوء، مخلفة وراءها الكثير من الارتياح.

بدأ كامل يجري اتصالاته محاولاً إخراجنا من المأزق الذي نحن فيه. فنحن نريد أن نتمكن من الوصول إلى مكان آمن يمكننا من خلاله أن نرسل الصور إلى الدوحة، أو نعود أدراجنا إلى الزنتان حيث السيطرة للثوار. استطاع كامل وعلاء أن يرتّبا لنا طريقة للخروج من هذه البؤرة.

نزلنا الساحة، وبدأ الثوار في العودة إليها للاحتفال بصد الهجوم.

عجت الساحة بعشرات الرجال. يحمل معظمهم أسلحة خفيفة وسيوفاً، بل وحتى عصياً، يلوحون بها ويرددون شعارات من قبيل: «قولو لمعمر وعْيالهْ، الزاوية فيها رجالهْ».

بدت الساحة في تلك اللحظة لوحة دالة صارخة بأن ليبيا لن تعود كما كانت، وإلى الأبد. فالخوف تجارة إذا بارت يصعب تسويقها من جديد.

ضاقت الساحة بالرجال، فهي المكان الوحيد الذي يشعرون فيه بالأمان. ففيها يضمدون جراحهم ويشيعون قتلاهم، ويرتمي بعضهم في أحضان بعض باكياً ومعزياً ومتعاطفاً. كانت لوحة إنسانية يصعب على العين أن تتملاها دون أن تدمع!

التفتُ يميناً فرأيت شهيداً على الأكتاف يطاف به وسط التكبير. بدأ عمار يصور، وكان بعض الشباب المتحمسين يلوموننا على أننا معاشر الصحافيين نصور كثيراً لكننا لا نبث إلا القليل. حاولنا التخلص منهم قائلين بتوسل:

ـ بالله عليكم دعونا ننطلق، وستبث الصور كلها قريباً.

كنا نحاول شق طريقنا وسط الدفع والصراخ...

كان الجو يشبه يوم الحج الأكبر. فالأوجه مرهقة لكنها مليئة بالإيمان والحيوية والتصميم، ولكل واحد شكوى وقصة ودموع وآهات. فذاك أخ فقد أخاه فهو يجأر إلى الله بالدعاء على الظالم، وذاك آخر يبدو الموت ماثلاً أمام عينيه يسأل الله أن يميته على الشهادة، يقع كل ذلك وسط فوضى عارمة وفوران في المشاعر لا يأمن فيهما الرجل جليسه ولا يثق بقعيده.

قمنا بتصوير هذه المشاهد بصعوبة إذ كان كل واحد ممن في الساحة يريد أن يوصل صوته إلى العالم الذي بدا أبعد ما يكون في تلك اللحظة عن هذه المدينة المنكوبة. فشعرنا حينها بأننا حقا نقوم بالدور الذي من أجله أنشئت الجزيرة: إيصال صوت من لا صوت لهم رغم متاريس المستبدين وعراقيلهم.

عندما تركت ساحة الزاوية وراء ظهري تذكرت عبارة كتبها أحد المثقفين العرب واصفا فيها حال الأمة: «أمة تحترق لتبقى».

خرجنا من الساحة بصعوبة، فأخذنا رفاقُنا إلى بيت قريب

وصلناه سيراً على الأقدام. دخلنا البيت[1] فكان أهله مضيافين كرماء حتى في لحظات عصيبة مثل هذه، بل لاحظت خلال دخولي للبيوت الليبية في هذه الأيام الصعبة أن الليبي لا ينسى كرمه حتى في أحلك اللحظات.

جلسنا داخل هذا البيت ربع ساعة، ومن الطريف أن أحد من كانوا فيه تعرف على لطفي، قائلاً:

- كأني رأيتك من قبل...، آه من الجزيرة!.

في تلك اللحظات كان منير خارج البيت يقرب سيارة حمراء اللون صغيرة الحجم من باب المنزل كي يُهربنا فيها.

بدأت السيارة تشق ساحة الشهداء بصعوبة، لكن المرور وسطها كان أكثر الطرق أمناً. خرجنا بصعوبة شاقين الشوارع الخلفية للزاوية إلى أن توقفنا أمام بيت هادئ في أحد المزارع في أطراف المدينة. إنه بيت منير بْسَيِمْ. نزل منير من السيارة فاتحاً لنا باب بيته باسماً قائلاً:

- تفضلوا. لا خوف عليكم هنا، فكل الجيران أهلي وأبناء عمومتي.

دخلنا غرفة متوسطة الحجم متواضعة في أثاثها، لكنها كبيرة وعامرة بالكرم والضيافة التي تجري في دماء كل الليبيين.

ألفينا أكبر تحد أمامنا هو أن جهاز البث الذي معنا

---

(١) البيت لأسرة كعْبَاز، وقد استقبلنا ابنهم أنيس كعبار، الذي استشهد أخوه في نفس اليوم.

متعطل نهائياً. لم نجد أي تفسير لتعطله إلا التشويش الذي كانت السلطات الليبية تركز كل جهودها عليه. كانت الخطة أن لا نمكث في هذا البيت إلا قدر ما نرتب التحرك في اتجاه الزنتان، إذ يبدو أن إرسال الصور عبر الجهاز الذي عندنا متعذر.

كان منير وسيلتنا الوحيدة للتحرك، لكنه ما إن أوصلنا إلى بيته حتى كر راجعا إلى ساحة الشهداء متوشحا سلاحه. حاولنا أن نشرح له ضرورة إخراجنا باعتبارها قد تكون أكبر مساعدة لأهل الزاوية نظرا لثروة الصور التي عندنا، لكنه أصر على الرجوع إلى الساحة واعدا بالقفول قريبا.

كمنا في هذا البيت في انتظار عودة منير. وبدأنا نحاول التنسيق مع الدوحة من أجل إيجاد طريقة لإرسال الصور إليهم. فجأة قال كامل:

- لدي فكرة! أنا سأطلب من أخي أن يتحرك رفقة الوالدة من ازوارة في اتجاهنا، لأتسلل إلى الطريق الرئيسي وأسلمه ذاكرة الكاميرا، على أن يتحرك هو في اتجاه رأس جدير ويسلمها لفريق الجزيرة المرابط على الحدود.

مما يبهر في عادات الليبيين احترامهم الشديد للمرأة حتى في الظروف الاستثنائية. فلو ركب أكبر مطلوب سيارة ووضع إلى جنبه امرأة لأمن التفتيش حتى تحت نظام القذافي.

وافقت فوراً على الفكرة، واتصلت بمحمد داود الذي رحب بدوره بها لكن المشكلة أنه بعد ربع ساعة تبين أن الطريق مغلق، ومن الصعب أن تعبر سيارة من ازوارة إلى ضواحي طرابلس لغلبة الرعب ونقاط التفتيش وتخطفِ الناسِ الناسَ.

لم يبق ـ إذن ـ إلا الصبر حتى نصل نحن الزنتان، رغم أن لعاب وكالات الأنباء العالمية في هذه اللحظات كان يسيل تلهفا لأي معلومة من الزاوية، فقد كان العالم يحس بأن المدينة تتعرض لمجزرة شاملة صامتة.

لذلك كان لزاماً علينا أن ننقل للعالم ما يجري، حتى ولو كان ذلك بواسطة الهاتف. ورغم أن إدارة القناة كانت حريصة على عدم انكشاف هوياتنا خوفاً على سلامتنا فإنهم قرروا بالتشاور معنا أن نتحدث على الهواء مباشرة.

جاءني صوت محمد داود عبر الهاتف:

ـ ستتحدثون بأسماء مستعارة...، وسنحاول تغيير نغمة الصوت فنياً، وسنقدمكم بأسماء مستعارة حرصاً على سلامتكم، وهو أمر معروف ومتداول في أدبيات الصحافة العالمية.

بعد ثوان كنت على الهواء مباشرة في حصاد الجزيرة، كصحافي من داخل الزاوية. كان ذلك مساء السبت الرابع من مارس ٢٠١١.

كان المذيعان إيمان عياد ومحمد كريشان ينوبان عن العالم في توجيه أسئلة كان الناس متعطشين لسماع أجوبتها ذالك المساء الربيعي من مساءات الزاوية.

كان زميلاي من الدوحة ينوبان عن العالم في توجيه الأسئلة لنا، بينما كنا نحن ننوب عن آلاف الثكالى والأسرى والجرحى والمكلومين والمخنوقين في جنبات ليبيا. كانوا يتوقعون منا أن ننقل صوتهم وآمالهم وأحلامهم إلى العالم

الآخر. نعم العالم الآخر. فقد بدت الزاوية في مسائها ذلك تنتمي لعالم آخر بعيد. عالم تغتال فيه الكلمة، ويشنق فيه القلم، وتخنق فيه أصوات المؤذنين.

شعرنا حينها بأننا نكتب الصفحة الأولى من تاريخ الزاوية في هذه الحقبة. أحسسنا بغبطة عارمة لأننا استطعنا ـ رغم حراب المستبد ـ أن نتسلل إلى خيمته كاشفين عوراته محدثين الدنيا عما يدور من ظلم وخنق داخل خيمته المعتمة التي ما كان يحسب أن أحداً يمكن أن يلجها إلا بإذنه.

قال محمد كريشان بصوت جهوري سمعته معظم ليبيا ذلك المساء:

ـ سيد أحمد علي.. كيف الوضع في الزاوية الآن...؟.

(٨)

فجأة جاءها صوته. كانت نبراته سكينا أغمدت في قلبها الذي حولته الأمراض إلى «شِلْوٍ مُمزّع». تسمرتْ عند باب الغرفة التي يأتيها من داخلها صوت التلّيفزيون. لم تستطع أن تتقدم ولا أن تتأخر!

كان جسمها يرْفَضُّ عرقاً كأنما تعرض لصدمة أو هدّة قوية. بدأت الأسئلة تتزاحم في ذهنها مع صور آخر لحظة رأته فيها. هل يمكن أن يكون ابني في الزاوية؟، هل يمكن أن يكون ذهب إليها؟، ألم يقل لي قبل عدة ساعات إنه في تونس وأن لا علاقة له بما يجري في ليبيا؟

وحده قلب الأم يمكن أن يجمع ويطرح ويربط بين الأحداث في أجزاء من الثانية! ثم نادت بصوت متهدج:

ـ خديجة..! خديجة..! تعالي! أليس هذا صوت أحمد فال؟.

ـ بلى، إنه هو.

قالتها الأخت المكلومة وهي تداري خوفها حتى لا تُضاعف أحمال الخوف التي رأتها تلبد سماء أمها. جلست عائشة أمام التلفزيون، لكن الدمع المضطرب في عينيها جعل

صورة المذيع تتخذ شكل عدة صور. مشكلة الأم أن أقوى أسلحتها هو أضعف ما تملكه في الوقت ذاته: قلبها اليقظ ودمعها الساخن.

حاولت أن تستمع إلى ذلك الصوت القادم من بعيد...، إلى ذلك الصوت «الغريب في ديار غريبة»...، إلى صوت ابنها المنبعث من تحت الرماد، الآتي من بين رعود وبروق القذافي، لكنها لم تستطع أن تواصل، والتفتت فرأت بنتيْها وقد تكومتا في ركن الغرفة، وبهما من الخوف والوجد والاضطراب ما بها، لكنهما عبثاً تحاولان إخفاء ذلك. بدت بنتاها أمام عينيها في تلك اللحظة عصفورتين مهيضتي الجناح...

أختان مكلومتان، قد تأتي الأخبار قريباً لتؤكد أن أخاهما قتل أو اختفى!

جمجمت...، مدارية دموعها الحيرى، ثم قالت بصوت متهدج:

- اتصلي عليه الآن!.

عبثاً حاولت خديجة، فهاتفه مشغول!

في هذه اللحظة، قال محمد كريشان منهيا المكالمة:

- شكرا للصحافي أحمد علي من الزاوية.

بعد انتهاء المكالمة انقطعت كل الاتصالات بشكل كلي وعام عن الزاوية. لم يعد في جنبات الزاوية كلها هاتف ينبض. تقهقرت المدينة عائدة إلى سالفات القرون، كأنما احتجت على رعونة العصر، فقررت اللجوء إلى كهف التاريخ

والتواري خلف ظلام القرون السحيقة. كل أدوات العصر معطلة، فلا هواتف ولا إنترنت.

هل اتخذ النظام هذه الخطوة لإحساسه بأن العدسة الوحيدة الممثلة لعين التاريخ قد دخلت حواري الزاوية وحقولها لتكون شاهدة، ولذلك يجب فقؤها؟ لا ندري. المؤكد أن الاتصالات قطعت نهائياً. حتى الهاتف الأرضي القابع في عمق منزل منير أصبح معطلاً، بل، حتى رزمة الهواتف التي جئنا بها معنا لم تعد تعمل، رغم أن فيها التونسي والقطري والثريا.

كان العالم ينتظر أي صوت ـ ولو مبحوحا ـ قادم من الزاوية. كنا ـ فريق الجزيرة ـ ذلك الصوت في تلك اللحظات.

عاد منير قبيل منتصف الليل، فحاولنا أن نؤكد له ضرورة أن نصل الزنتان في أسرع وقت.

لكن الليل كان قد انتصف فأوينا إلى فراشنا في انتظار غد لم نكن نعرف شيئا عن طبيعته. كان يوم الأحد السادس من شهر مارس يوما غير عادي. بدأت بواكيره وجميعنا داخل هذا البيت المتواري بين مزارع وحقول الزاوية.

مع بواكير الصباح الأولى، اقتربت سيارة رباعية الدفع متوسطة الحجم من باب غرفتنا، وبدأنا في وضع الأمتعة داخلها. حاول منير أن تكون الأمتعة غير لافتة إذا ما أوقفتنا نقطة تفتيش، فوضع بعض الأشياء الموهمة أننا في طريقنا لقضاء يوم هادئ في أحد المزارع.

ما إن خرجت السيارة من باب البيت حتى لمحنا طائرة تحلق على ارتفاع منخفض. أوقف منير السيارة بسرعة وهرعنا إلى سطح المنزل لتصويرها. كان من الواضح أنها تريد قصف الثوار المتجمعين فقد اتجهت جهة ساحة الشهداء، لكننا لم نتمكن من تصويرها وهي تقصف. لكننا صورنا الطائرة والدخان المتصاعد الذي خلفته وراءها بعد أن انقلبت راجعة. ثم رجعنا إلى السيارة وتحركنا.

حاول منير جاهدا أن يخرجنا من الزاوية. كان يلف ويدور محاولا تجنب عدة نقاط تفتيش، لكن الخروج بدا في منتهى الصعوبة. بعد عدة محاولات مال بنا إلى مزرعة لأحد أبناء عمومته، وظل أخوه محاولا تمشيط الطريق. أثناء ذلك، استلقينا داخل المزرعة تحت ظل شجرة، متعاطين كؤوس الشاي متلهين ببعض الأحاديث الجانبية انتظارا لفرج ما.

بعد ذلك بقليل، تكومنا من جديد داخل السيارة. سلك منير بسيم طريقا غير معبد. كان من الواضح جدا أنه يعرف هذه الأرض شبراً شبراً وذراعاً ذراعاً. حاول بكل ما اكتنز من خبرة الخمسين عاما الماضية التي قضاها في هذه الربوع أن يخرجنا من الزاوية. سار بنا في طرق ملتوية حوالي الساعة، ثم قرر أخذنا إلى مزرعة أخرى لابن عم آخر. لكنه نزل أخيرا من السيارة هازاً رأسه قائلا:

- كل البوابات مسكرة.. ذبابة ما يمكن تطلع!.

دخلنا المزرعة الهادئة التي تتوسط عدة مزارع، لكننا ما إن ولجناها حتى استأذن منير في الخروج. حاولنا إقناعه بضرورة البقاء معنا والتفكير في طرق الخروج، لكنه أصر على

الرجوع إلى ساحة الشهداء، واختفى بهدوء متوشحا سلاحه وسط توسلاتنا.

جلس خمستنا في صمت وتأفف هناك...، لطفي وعمار وكامل وعلاء وأنا.

جلسنا ننتظر المجهول.

بعد هنيهات انطلقنا نتحدث في كل شيء وعن كل شيء بينما كانت تقض مضاجعنا أسئلة من قبيل: ماذا لو دخلت علينا كتيبة من كتائب القذافي هنا؟، ماذا لو علموا بمكان وجودنا من خلال الهواتف؟، هل سنتمكن من إيصال الصور التي عندنا أم ستضيع؟، هل سيعود منير أم لن يعود؟

بعد دقائق صاح علاء فجأة قائلا:

ـ شبكة الهاتف موجودة هنا!

قالها وهو ممسك بهاتف نوكيا الأحمر.

ما دامت الشبكة متوفرة فهذه فرصة لإيصال آخر الأخبار. كنا على اتصال بالثوار في الميدان، وأخذ الزميل لطفي المسعودي ـ الذي اتفق على تسميه بـ«علي ازداوي» ـ الهاتف وتحدث على الهواء عن آخر تفاصيل الميدان.

تحدث لطفي عن مشاهداتنا بداية اليوم، وعن أجواء المعركة التي رأى بأم عينيْه، وكان حديثه رائعا مفعما بالمزاوجة ما بين المهنية والعاطفة الإنسانية.

بعد ساعة من الانتظار قررنا المغامرة، فاتصل كامل بعدة جهات من الزنتان كي يساعدونا في محاولة الخروج عن

طريق عناصر داخل الزاوية ممن يثقون بهم، فرُتب الأمر. ثم بعد ذلك وصل منير قبيل المغرب بقليل وقررنا التحرك.

تحركنا في اتجاه الطريق الرئيسي، وتواعد منير وأحد الشباب المرسل من طرف أحد ثوار الزنتان على أن نلتقي في نقطة معينة على الشارع الرئيسي قبيل نقطة التفتيش. وما إن استوينا على الطريق الرئيسي حتى تراءت لنا سيارة بيضاء صغيرة الحجم تقف على الجانب الأيمن من الطريق، كان بداخلها الرجل الذي يملك مفاتيح خروجنا من هذه المنطقة الخطرة.

ترجل رجل متوسط القامة أبيض اللون يرتدي الزي التقليدي الليبي واقترب منا. جاء وسلم وقال بنبرة واثقة:

- أنا الحاج فضل. مرحبا بكم. لا تخافوا فكل أصحاب البوابة يعرفونني جيدا وستمرون بسلام. ما خطبكم؟ هل عندكم سلاح أم ماذا؟

فقال له كامل:

- لا سلاح عندنا..، فقط نود العبور دون ضوضاء.

فأجاب الحاج فضل بهدوء واثق:

- انزلوا كلكم إلا السائق، ثم امشوا في هذا الشارع مائتي متر، والمزرعة الثانية على اليمين هي مزرعتي فادخلوها بسلام آمنين. أما السائق فعليه أن يتبعني بسيارته.

نزلنا وترجلنا جهة المزرعة بينما بقي منير في السيارة.

أشعرتنا لغة الثقة التي يتحدث بها الحاج فضل بشيء من الطمأنينة، فالتفتَ كامل إلى لطفي قائلاً:

ـ عبارة «الحاج» في ليبيا خاصة برجال الأمن وعلية القوم.
يبدو أن الرجل واثق من نفسه ومتنفذ جداً.

مشينا، لطفي وعمار وعلاء وكامل وأنا، في اتجاه بيت الحاج فضل. قبل باب بيته بقليل صادفنا مجموعة من الشباب الذين نظروا إلينا بطريقة لم نرتح لها كثيرا. لكننا كنا لا نملك أي خيارات، فرددنا السلام بسلام، وواصلنا السير.

دخلنا بيت الحاج فضل بن نُصَيرَة، ودخل هو بسيارته مع منير من الباب الآخر.

بدا الرجل مجسدا لكل الأخلاق الليبية الرفيعة، وكان الثراء بادياً على بيته. حاولنا أن نشرح له من أول لحظة ضرورة التحرك في أسرع وقت ممكن، لكنه أصر على أن البوابة ليست مأمونة في تلك اللحظة، وأنها ستكون آمنة بعد ساعة، ثم إن علينا أن نتعشى عنده.

لم يكن أمامنا خيار إلا الاستجابة لكرم الرجل، ثم إننا شعرنا بأننا نسبيا قد خرجنا من بين فكيْ الأسد، وأن ما بقي ما هو إلا ترتيب أو مسافة طريق تُقطَع في الساعتين القادمتين.

أصر الحاج فضل ـ تكرماً منه ـ على أن نتجول معه داخل مزرعته. مزرعة جميلة لا شك أنه صنعها على عينيه. إذ أرانا فيها عتاق الخيل وكرائم الإبل. كان يتجول بنا بين الأحصنة المختلفة الألوان والطبائع، متحدثا عن فرق ما بين الحصان البريطاني وأخيه العربي الصافن إلى جنبه، وبين النوق التلاد التي ورثها عن والده وتلك الطارفة المشتراة. نادى فضل أحدَ رعاته طالبا منه أن يحلب لنا من لبن الإبل.

بعد حوالي نصف ساعة أعادنا الحاج فضل إلى غرفة الاستقبال في بيته. إذ كان على «أحمد علي» أن يتحدث على الهواء مباشرة في «حصاد يوم» الأحد، السادس من مارس ٢٠١١.

في هذه اللحظة، كانت سيارة بيضاء اللون صغيرة الحجم تسير بسرعة فائقة ما بين دوار التلفزيون وجسر «مسجد الدولة» وسط العاصمة القطرية الدوحة. كان محمد داود يجلس خلف مقودها في طريقه إلى بيته بعد يوم طويل من العمل المقلق. كان ذهنه مشغولا بقضية واحدة: مصير فريق الجزيرة في ضواحي الزاوية. رن هاتفه وكنت على الجانب الآخر:

ـ لقد عبرنا إلى مكان آمن، ونحن في طريقنا إلى منطقة أخرى أكثر أمنا. لدي الآن مقابلة على الهواء، فما رأيك أن أتحدث باسمي الصحيح؟

ـ الحمد لله على السلامة أولا، لقد كادت نفسي تذهب حسراتٍ خوفا عليكم.

ـ سلمك الله أبا خالد!

ـ لا أوافق على أن تتحدثوا بأسمائكم الآن. أرى أن الوضع غير مناسب، ثم إنكم قد تحتاجون للرجوع إلى هناك، فلماذا نتبرع بالتعريف بكم؟.

ـ أتفهم ذلك، نتحدث لاحقاً.

ـ وداعا.

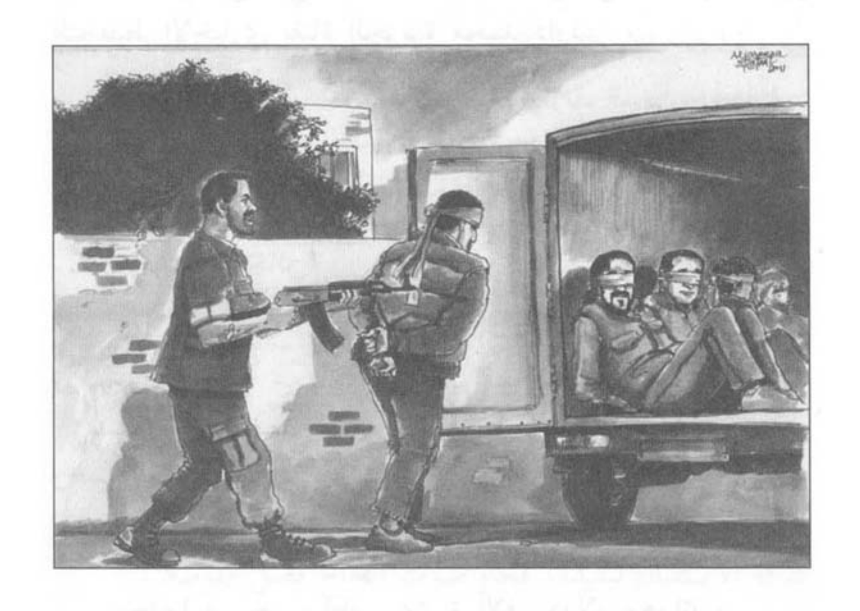
كنت أتحدث مع محمد داود ونحن ندلف إلى غرفة

الاستقبال في بيت الحاج فضل كي أجد لي مكاناً مناسباً وهادئاً للحديث على الهواء.

بعد عدة دقائق من الحديث على الهواء مباشرة، وبينا نحن نتجاذب أطراف حديث ممتع مع مضيفنا الكريم الحاج فضل، إذ سمعنا أصواتا منكرة وهينمة تقترب من الباب...،

ألقينا السمع برهة...، فكان واضحا أن المحذور قد وقع!

(٩)



عندما التفت يمينا فرأيت كامل التلوع، الطبيبَ المهذبَ، وبجنبه الصحافي اللامع لطفي المسعودي وكلاهما رافع يديْه تحت رحمة رجال بأيديهم أسلحة يتفوهون بعبارات نابية.. قلت في نفسي: «إي وربي! لقد ألقي القبض علينا!».

ـ لا تتحركوا..، أيديكم إلى الأعلى. لا تحرك يديك أيها الكلب...، اسكت! دور! دور!

ـ فتّشوهم واحداً واحداً.

كانوا ما بين العشرة والخمسة عشر رجلا يرتدون ملابس عسكرية، ويحملون الأسلحة الخفيفة من كلاشنكوفات ومسدسات.

وجدتني واقفا مرفوع اليدين ووجهي إلى الحائط، لكني كنت أفكر في شيء واحد. كيف سنوصل الخبر لمدير التخطيط الإخباري بقناة الجزيرة محمد داود.

كنت أنظر إلى هاتف نوكيا صغير قرب قدمي، فحاولت دحرجته برجلي، لكن عسكريا فظاً اختطفه في لمح البصر صائحا:

ـ لا تتحرك! يا خائن!

كنا نسمع عن تصرفات الكتائب تجاه الليبيين ونحس الألم والتعاطف معهم. أما الآن فها نحن أولاء... ممثلو مؤسسة غير محببة لدى القذافي (قناة الجزيرة) بين يديْ رحمة الكتائب.

بدؤوا في تفتيشنا واحداً واحداً.

وجدوا في جيب لطفي عشرة آلاف دولار وهواتف...

وجدوا في جيبي عشرة آلاف دولار وهواتف...

وجدوا في جيب عمار أربعة آلاف دولار وهاتفا.

كان العسكري يقلب الدولارات في يديه متقدّدا في إهابه مفاجأة بحجم المال الذي عثر عليه في جيوبنا، فكان يتفوّه بعبارات من قبيل:

ـ أوه..! شوف! شوف! المال! مجرمون! جرذان! جايبين الفلوس وقاعدين يدعم في المتمردين!

أوقفونا في صف متباعدين، بينما وقف عسكري أو اثنان قرب كل واحد منا. حاولتُ في هذه اللحظة أن أومئ إلى زملائي بما يجب علينا أن نتفق عليه في التحقيق. فهذه اللحظة ستكون حاسمة في طريقة التحقيق وسيره.

قلت بالإنكليزية حتى لا يفهمني العساكر: «نحن صحافيون من المؤسسة التي نعمل فيها. تلك الحقيقة التي يصعب إخفاؤها، ويصعب الاتفاق على قصة متناسقة غيرها»، فسمعني لطفي وأومأ بالموافقة. أما بقية زملائي فاتضح لاحقا أنهم لم يسمعوني لأنهم كانوا أبعد مسافة.

كان العساكر يأتمرون بأمر كبير لهم قصير القامة أسمر اللون، يحمل منظارا مقربا وعدة هواتف. كان يتحدث على الهاتف باستمرار، بينما يُقطّع حديثه بأوامر سريعة يوجهها للعساكر الذين ظلوا يتصرفون تجاهنا بفظاظة.

اقترب أحد العسكر من شاب صغير السن يقف أمام مدخل غرفة الاستقبال ليقيده، فجاء صوت الحاج فضل متوسلا:

ـ ذاك ابني، وليس له دخل في أي شيء، وهو في الخامسة عشرة من عمره.

فتركه العسكري. كان مما آلمني في هذه اللحظات مرأى اعتقال رجل في سن ووزن الحاج فضل داخل بيته. فقد كانت صورته ـ وهو يقيد داخل بيته أمام أبنائه ـ مفعمة بكل مساوئ النظام المستبد الجاثم لحظتها على أنفس الليبيين.

تقدم عسكري يحمل مجموعة من القيود البلاستيكية وبدأ يشد أيدينا وراء ظهورنا واحداً واحداً.

وزعونا بين عدة سيارات، وعزلوني عن بقية زملائي، إذ وضعوني في السيارة التي كان يقودها قائد الفرقة.

ما إن تحركنا حتى وقف الموكب كله ونزل بعض العساكر، وسمعنا صوت إطلاق نار.

هل هي التصفية الآن؟ هل صفوا زملاءنا الليبيين؟ أم ماذا؟

عاد الموكب للتحرك، وبدأ العسكري الجالس في السيارة أمامي يسألني:

- أين تعمل؟

- في قناة الجزيرة.

- أووووووه...، قناة الجزيرة!!!!!، الحقيرة!، أنتم من خرب بلادنا!، أنتم من يتم أطفالنا!، كل ليبي مات ففي أعناقكم دمه!، يا راجل كذبتم حتى أصبحت نساؤنا لا تصدقنا!

- ستلقى جزاءك! سترى!، لن أحدثك عما ينتظرك!، أنت الذي ستراه بعينيك!

كان الخوف في هذه اللحظات يعتصر قلب كل منا وهو يساق في سيارات الاستخبارات إلى المجهول.

فها نحن أخيرا بين أيدي قوم سمعنا عنهم كل شر. سمعنا كيف يقتلون الناس بدم بارد، وكيف يعذبونهم. وها نحن أخيرا لقمة سائغة بين أيديهم.

كانت السيارة تهوي بنا في اتجاه نجهله، بينما كان ذهني مثقلا بصور وأفكار مختلطة.

في مثل هذه اللحظات، في لحظة انتظار الموت المفاجئ يكتشف الإنسان مغارات في أعماقه لم يشعر بوجودها قط، ولم يخبره عنها أي رائد. يقف أمام نفسه عارية للمرة الأولى يطالع نقائصها وفضائلها وتعرجاتها واستقاماتها. قد يكتشف فضائل من الشجاعة في نفسه ما كان يظن أنها بين جنبيه، كما يمكن أن يكتشف أثقالا من الخوف ما كان يحسب أن أضلاعه يمكن أن تسعها.

يسافر في عالم جديد!، يتصفح وجوها أخطأ في حقها في يوم من الأيام فيتمنى لو جثم بين يديها طالبا المغفرة!

يتذكر دمعة أمه وبكاء أطفاله وحزن أصدقائه!، يتذكر كذلك نبل القصد الذي أوقعه في شراك العدو، فيمتلئ غبطة وسعادة، ويشعر بنشوة الشهيد وهو يساق إلى المقصلة.

بينما كانت هذه الأفكار تسيطر على ذهني، ظهرت أمامنا نقطة تفتيش، بدت كأنها قبل المكان الذي نحن في طريقنا إليه.

ـ افتح الطريق!

قالها سائق سيارتنا بحزم.

ـ إلى أين؟، تأتون كل لحظة طالبين إفساح الطريق!

رد سائق السيارة:

ـ افتح فالموضوع مهم، وبإمكانك الاطلاع على هويتي.

أفسح العسكري ـ الذي كان الشرر يتطاير من عينيه ـ الطريق بعد عدة لحظات، فواصلنا السير في مكان بدا شبه قاعدة عسكرية.

ما إن غادرنا نقطة التفتيش حتى نهرني العسكري قائلا:

ـ اخفض رأسك! ضعه بين ركبتيك!

ثم تناول خرقة وشدها على عينيّ، فتحول الخوف الذي كان يتملكني إلى رهبة بعدما انضافت إليه طبقات الظلام.

أصبحت نافذتي في هذه اللحظة على الدنيا هي تهديدات العسكر وصرخاتهم...، أو ظلاما دامسا هو كل ما أرى ..، أو ما لا أرى بالأحرى. ها أنذا رهين محبسيّ: الخوف والظلام.

بعد عدة دقائق شعرت بأنا دخلنا نفقا أو منخفضا من الأرض، لفت السيارة داخله ثم توقفت. أنزلونا كلنا. أحسست كأننا دخلنا مكتبا مهمته التحقق من هوياتنا وتسلم ما عندنا من أشياء. إذ بدأ يسأل كلا منا عن اسمه ومكان ميلاده ويتحقق من ممتلكاته.

كان العسكر في هذه اللحظات في منتهى القسوة. فالسب والشتم واللكم من الخلف أو الأمام أو الجنب متواصل. وكانت السخرية منا لا تتوقف!

ـ صحافي؟، ما شاء الله! توّ تشوف! توّ تشوف!

بعد حوالي ٢٠ دقيقة، أدخلوني إلى سيارة شعرت بأنها سيارة سجن قديمة. فلا مقاعد داخلها، ثم ما لبثوا أن أدخلوا بقية الزملاء معي. كان حجم السيارة أصغر من أن يحمل

داخله سبعة أشخاص. لذلك ضغطونا ضغطا، وكان بيد أحد الحراس حديدة طويلة يديرها على كل من رفع رأسه أو تحرك، فنالت ضربة منها رأسيْ عمار ولطفي. كنت أكثر حظا لأني أول من دخل، فكنت في الركن فلم تصبني. سمعت لكنة أمريكية في هذه اللحظة. فتوهمت أنها قد تكون لصحافي آخر.

قال لنا أحد الحراس وهو يغلق باب السيارة:

ـ إذا تفوه أي منكم بكلمة فسأقص لسانه.

فكانت الطريقة المثلي كي يُشعر الواحد منا زملاءه بوجوده هي التنفس أو التنهد، أو عبارات استغاثة مثل: يا الله!

أغلق العسكري باب السيارة علينا بعنف، وظل يدق فوقنا بحديدة أو شيء حاد، مما ضاعف الخوف في نفوسنا من طبيعة ما ينتظرنا.

بعد لأي، تحركت السيارة، وقبل أن تتحرك فتح أحد العساكر الباب قائلا:

ـ الكلام ممنوع! هل سمعت يا..؟

ثم أغلق بعنف.

تحركت السيارة بهدوء، وبعد نحو عشرين دقيقة، أحسسنا أنها دلفت بنا إلى مكان ما. انحرفت يسارا ثم توقفت. نزل السائق ثم سمعنا جلبة العساكر يقتربون. خرط أحدهم باب السيارة الحديدي قائلا:

ـ هؤلاء هم!.

كنا قد قُيدنا بقيود بلاستيكية قوية فبدأ الألم يسري في الأعصاب. تخيلت حينها أني كنت أتنفس من يديّ. شعرت بأني أفقد الأوكسجين ضيقا بالقيد المشدود عليهما.

ثم أنزلونا واحداً واحداً. . .

كنت أسمع أصوات زملائي، وحواراتهم مع السجانين.

ـ ما اسمك؟

ـ لطفي المسعودي.

ـ الجنسية؟

ـ تونسي.

ـ المهنة؟

ـ صحافي.

ـ وأنت ما اسمك؟

ـ عمار الحمدان.

ـ الجنسية؟

ـ نرويجي.

ـ المهنة؟

ـ صحافي.

كانت هذه أول مرة أجد فيها زملائي وهم في وضع لا يملكون فيه لأنفسهم شيئا، إنها تجربة قاسية. أن يتحول

زميلك الذي تحب من شخص مكَرم معزز، يتصرف أمامك إنسانا حرا طليقا، إلى شيء آخر...، مجرد رقم...، يتحكم فيه الجند ويخاطبونه بأشنع الألفاظ، وأنت مسلوب الإرادة لا تستطيع أن تفعل شيئا.

بعد أن تحقق العساكر مرة أخرى من هوياتنا، وتأكدوا من الحقائب والهواتف التي يملكها كل منا، أخذونا واحداً واحداً. لم نكن نعرف إلى أين نسير. فالعينان ما زالتا مغمضتين قسرا والقيد يكاد يهلكنا.

ثم ولجنا «منزل الأموات!»[1].

لم نكن نعرف إلى أين نقاد، فالمستبد يحرم ضحيته من أي معلومة حتى من خبر دخولها السجن. أحسسنا أنا دخلنا مكانا دافئا، فسلمني عسكري إلى آخر أمسكني من يميني بعنف صائحا:

ـ تقدم!

أحسست أن المكان مدخل لمبنى، وأن حركة دائبة تسري داخله. شعرت أيضا بأنه مكان احتجاز لأن التهويةلم تكن طبيعية، فرائحة السجائر تقلق المكان.

ـ انزل درجة..، ما اتخافش!، امش!، يا راجل امش!

ما لاحظته أن السجان يتوقع من الأسير أن يسير بخطى واثقة، رغم أنه يسير للمرة الأولى دون عينيه.

---

(١) العبارة من عنوان مذكرات الأديب الروسي دوستويفسكي الموسومة بـ **ذكريات من منزل الأموات**.

نزع العسكري ـ الذي سنتفق على تسميته بـ«الأجش»، بسبب البحة التي في صوته ـ القيد والغطاء، فشعرت كأني عدت إلى الدنيا.

كان قد مر نحو ساعتين أو ثلاث وأنا معصوب العينين مغلول اليدين، وكانت تلك أطول فترة عمى ـ خارج النوم ـ عرفتها في حياتي. فأحسست لحظة فتح عيني كأني وُهبتُهما من ربي لأول مرة.

رأيت جمال الألوان رغم محدوديتها داخل أقبية المخابرات. لمحتُ المصباح الكهربائي المتدلي من غرفة بدت مخزنا للمواد الغذائية. كانت فيها علب بيبسي، وأكياس متناثرة، وبقايا طعام.

ثم قال الأجش وهو يفتشني مرة أخرى بعد أن نزع الغطاء عن عيني:

ـ لن يؤذيك أحد هنا، ولا تحسبن أن مرد ذلك خوفنا من الحقيرة التي تسمونها الجزيرة. بالعكس!، لن نعذبك لأننا نحترمك كإنسان فقط. قالها بنبرة يبدو أن صاحبها كان يشفق على هذه الضحية الغريبة.

ساقني الأجش بين صف من الزنزانات وهو يقول:

ـ نزل رأسك!

أول ما لفت انتباهي كان فولاذية وسواد أبواب الزنزانات التي كنت أسترق لها النظر عن يميني. توقف بي أمام باب مشرع، وأشار إلى داخل الزنزانة قائلا: تفضل. هذه غرفة خاصة بك..، إنها خمس نجوم!

ابتلع الحرف الأخيرة من كلمة نجوم ضاغطا عليه وكأنه

يريد أن يوصل رسالة... وانصرف!

رفعت رجلي لأدخل الزنزانة، فتذكرتُ بيت ابن سيناء الذي تمثل به العقاد لحظة ولوجه السجن:

دخـولـي بـالـيـقـيـن بـلا امـتـراءِ
وكـلُّ الـشـك فـي أمـر الـخـروج![2]

ما أقرب الدنيا من الآخرة.

قبل أسبوع واحد كنا نذرع شوارع تونس رافضين المبيت في أحد فنادقها السياحية، معتبرين إياه «دون المستوى». والآن علينا أن ننام هنا.

ثم هل هي ليلة لا صباح لها موصولة باليوم الآخر؟، هل ستنتهي آلاف الأحلام والقصص والمغامرات بكل بساطة هنا في هذه الليلة؟، هل ستدفن أحلام أسر موزعة ما بين النرويج وتونس وموريتانيا وسوريا وليبيا بكل بساطة، وبتصرف من جندي أبله؟!.

هل هناك سيّاف وراء الزنزانة يشحذ سيفه ـ كما وعدنا بعض من اعتقلنا ـ ليقضي علينا قبل انبزاغ فجر هذه البقعة من العالم؟

المقلق أن كل شيء ممكن إذا كنت تتعامل مع العقيد معمر القذافي.

أولم يقتل ضباط الجيش الليبي الذين ينتمون إلى قبائل

---

(٢) عباس محمود العقاد، **عالم السدود والقيود** (بيروت: منشورات المكتبة العصرية، [د. ت.])، ص ٧.

ذات شوكة قبل أسابيع لعصيانهم الأوامر؟، فعلها دون أن يرف له جفن، فما الذي يمنعه من قتل حفنة من الصحافيين لا حامي لهم إلا مبادئ المهنة الصحافية والحرية وكرامة الإنسان التي يؤمنون بها. ذاك ما كان كل منا يفكر فيه لحظة ولوجه إلى زنزانته.

وزعونا بين الزنزانات.

تذكرت فراش أمي الذي تعده لي كي أنام قربها قرير العين مصون الكرامة، بعيدا عن صيحات الزبانية وأنين المظلومين وصلصلة حِلق القيد..

ثم دلفت إلى داخل الزنزانة مبسملا.

كانت مساحتها حوالي ٤ أمتار مربعة. توجد داخلها مرتبة ووسادة ولحاف وفراش خشن بال يغطي كل الأرضية. باب حديدي سميك سمك قلوب السجانين، أسود سواد قلوب المستبدين، وبه فتحتان في الجانبين السفلي والعلوي.

أول ما لفت انتباهي بعد تأملي جنبات الزنزانة هو أن على الوسادة المرمية في الركن دما قانئا. هل كان النزيل الذي قبلي يعذب عذابا نكرا؟، هل يعني ذلك أن التعذيب عادةٌ تنتظر كل من ولج هذه الزنازين؟

حملقتُ في الدم القانئ متمثلا بقول أبي العلاء:

رب لحد قد صار لحدا مرارا ضاحكا من تزاحم الأضداد
ودفينِ على بقايا دفينِ في طويل الأزمان والآباد!

وأي شيء أشبه بالقبر من السجن!

صندوق مغلق يوجد داخله رفات إنسان لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا. مجرد مشروع رفات إنسان قد ينشر فيعود إلى الدنيا وقد لا ينشر.. إلى يوم الحساب.

من هذا الدفين الذي كان قبلي؟، ثم أين هو الآن؟

هل منّ الله عليه بالحرية بعد الدم والسجن؟، أم دفنت أشلاؤه وأحلامه في هذه الأقبية المظلمة؟

كان أول نشاط قمت به في «منزل الأموات» أن توضأت وصليت العشاء.

بدأت أتعرف على عالمي الجديد الذي عليّ أن أعيش فيه شئت أم أبيت.

في الركن الأيسر بعد الباب مباشرة توجد حنفية ومكان لقضاء الحاجة، تأتي بعد ذلك مساحة لا تتجاوز ربع المتر ثم التكية. هذا هو عالمي إذن.

كان مكتوبا على الجدار بخط جميل قول الله تعالى: **﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غدا، وما تدري نفس بأي أرض تموت، إن الله عليم خبير﴾**[٣].

لعل الدفين صاحب الدم القاني الذي كان قبلي، والذي يضمّخ دمه الوسادة التي تحت رأسي، هو من كتب الآية. رددت طرفي فيها فبعثت دلالاتها الكثير من الشجون في نفسي. هل سأموت في هذا المكان الذي لا أعرف حتى مجرد اسمه؟

---

(٣) **القرآن الكريم**، «سورة لقمان،» الآية ٣٤.

هل قضى ربك أن أولد في الشمال الإفريقي، وأخترق الأمريكتين الشمالية والجنوبية وأوروبا وآسيا، وأجر الذيل في القارة الإفريقية، ثم ينتظرني أجلي في هذه الزنزانة القاتمة؟

لم لا..؟، «وما تدري نفس بأي أرض تموت!».

وسط هذه الخواطر حاولت تنظيف التكية التي علي المبيت فوقها، ثم وضعت جنبي وحاولت النوم.

تعذر علي النوم لساعات، فالذهن الإنساني لا تحده الحدود. كان أول ما فكرت فيه هو كيف سيستقبل أهلونا نبأ اعتقالنا؟، كيف ستستقبل أمي نبأ اعتقالي وهي الأم الرؤوم التي تملك بين جنبيها قلبا خفاقا أتربع أنا عليه.

هل ستصاب بانهيار عصبي؟

هل ستنتابها نوبة وتودع هذا العالم حسرة بسببي؟

أم إن إيمانها بالله وبالقدر خيره وشره سيعصمها من كل ذلك؟

عجبا لعلاقة الإنسان بأمه، إذ تقفز صورتها إلى ذهنه كلما أحس بقرب النهاية، لعلمه بأنها أكثر مخلوق سيتألم لفراقه. في اللحظات الفارقة يتحول الإنسان إلى مجرد طفل يفكر في أمه وخطرات قلبها.

كانت صورة أمي هي أكثر ما خاطبته وخاطبني في تلك اللحظة، رغم مزاحمتها من طرف صور أخريات...

وفي الحي منا نسوةٌ لو شهِدنني
بكيْنَ وفدّين الطبيبَ المداويا

فمنهن أمي وابنتاها وخالتي
وباكية أخرى.. تهيج البواكيا[٤]

كانت صورة «الباكية الأخرى» تعلو وتسفل وسط أمواج التفكير في الحاضر والمآل.

كانت صورة أم ليلى ـ وهي تتلقى النبأ ـ عنيفة وصادمة. كيف ستتصرف وتتجلد وبين يديها بنتان صغيرتان كأنهما فرخا حمام في عش تتقاذفه الرياح، ولما يتجاوز عمر كبراهما أربعا؟

لا تستطيع حتى أن تحكي لهما أن أباهما: مَرّ من هنا... وهذا الأثر.

غاب، لكنه غياب من حاول إيصال أصوات المستضعفين والمخنوقين رغم أنف المستبد الجاثم. غاب، لكنه غياب من حاول وصف الدمع الحائر في عيون الأرامل والأيامى والمعذبين في بلاد عربية حبيبة... اسمها ليبيا.

كان استحضار صورة أم ليلى محزونةً وحيدةً في بيتها في الدوحة وهي تتلقى الخبر عنيفة!

ولما دخلتُ السجنَ يا أمَّ مالكٍ
ذكرتُكِ والأطرافُ في حلقِ سُمْرِ![٥]

لكن الغريب أن الإنسان في النهاية يتأقلم مع أي وضع، ويتعايش مع أي طامّة.

---

(٤) من قصيدة لمالك بن الريب.

(٥) من أبيات لهدبة بن خشرم العذري.

طردت هذه الوساوس، وقرأت أذكار النوم، ووضعت جنبي.

كنت كلما أخذتني سنة نوم سمعت أبواب الزنزانات تكاد تخلع. سجين قادم وآخر يحول من زنزانة إلى أخرى. وما يحيرني حتى اللحظة هو حرص مهندسي السجون على أن يكون فتح كل زنزانة عذابا يشترك في تجرعه كل نزلاء العنبر.

في الصباح الباكر جاء أحد الحراس وفتح الثقب السفلي وسأل:

ـ كم واحدا؟

ـ واحد فقط، أجبته وأنا أنظر بحذرٍ من الثقب.

رمى قطعة خبز وعلبة عصير صغيرة الحجم وقطعتي جبن، وانصرف.

كنت مسدود النفس غير راغب في طعام، فشربت العصير وتركت الباقي، فأنى لي أن ألذ طعاما أو شرابا وأنا مشدوه الخاطر، ممزق النفس، ملتاع الفؤاد، لا أعرف من اعتقلني ولا من سيحقق معي؟، وهل علمت الجزيرة وأهلنا باعتقالنا أم لا؟

بدا تناول الإفطار في تلك اللحظة تفكُّهاً أبعد ما يكون.

(١٠)



قال البُحْتُرُ والريق يتطاير من فيه:

ـ لقد انسلخ اليوم وطال بنا المقام...، لكن دعني أسألك: هل صحيح أن موظفي الجزيرة كلهم من الإخوان المسلمين؟

ـ لا أدري، لكنني متأكد أن في زملائي دروزاً وشعية ومسيحيين أستبعد عضويتهم في جماعة الإخوان المسلمين.

- قصدي، معظمهم! المدير العام وضاح خنفر من الإخوان المسلمين..، أليس كذلك؟

- سمعت الناس يقولون ذلك، لكني لا أدري.

- أحمد، أنت فاهم ومثقف وأنا... («أنا» ينطقها البحتر ممالةً أكثر من أي ليبي آخر، ينطقها وكأنه يمطها مطاً، ثم يشفعها عادة بكلمة «فاهمني واللّ لا»، ينطقها قبل أن يكمل الجملة).

- أنا...، المشكلة أن الديمقراطية لا تصلح للعرب، فكل واحد منهم يريد أن يكون زعيما. الديمقراطية ثوب فصل خارج أرضنا لثقافة مغايرة ولا يصلح لنا. أليس كذلك؟

كنت نادرا ما أجيبه على أسئلته التنظيرية المتعلقة بالديمقراطية وأخواتها، ولم أكن أعارضه إذا فاه بأبشع النظريات، إذ ما كنت مقتنعا بضرورة إقناع ضباط مخابرات القذافي بمبادئ الحرية والديمقراطية، فكنت أجيب كلما طلب مني تصديق خلاصاته النظرية بعبارات متعثرة من قبيل: «أيوه، لا أدري، ربما، يعني...».

أحسست بعد ساعات من التحقيق أن الخرقة المشدودة على عيني تزعجي، وتمنعني من سماع أسئلة المحققين بوضوح، فقلت بتأفف:

- إذا كنت تريدني أن أسمعك بوضوح فعليك أن تزيل الخرقة عن عيني لأنها تحد من تركيزي، فهي مشدودة من فوق أذني بقوة.

- يا سيد أحمد، نحن ضباط مخابرات ولا يمكن أن ترى

وجوهنا. هذا هو النظام. ثم إنه من يدري قد تخرج في يوم من الأيام من السجن فتتعرف على وجوهنا، فتقول: «هؤلاء عذبوني، أو هؤلاء فعلوا بي كيت وكيت!».

خفق قلبي عندما نطق كلمة «تخرج»، فالأسير لا يسمع كلمة «الخروج» حتى يخفق قلبه، فالحرية حلم يعيش معه مستيقظا ونائما، في حالاته كلها بعيدا عن الواقعية وخلاصات العقل.

نادى البحتر أحد الحراس وأمره بإرجاعي إلى الزنزانة. عندما رجعت إلى الزنزانة لاحظت أنها رقم ٩، وفهمت منذ تلك اللحظة أن ذلك هو اسمي. ففي عالم السجون يحرمونك من أبسط سمات الآدمي المتمثلة في أن لك اسماً خاصا بك. هنا تتحول إلى مجرد رقم. كنت رقم ٩.

بعد عودتي حاولت التأكد من سلامة زميلائي، فصرخت من زنزانتي:

ـ عمار! لطفي!

فلم يجب أحد. أعدت النداء مرات فجاءني صوت لطفي:

ـ نعم يا أحمد.

ـ كيف حالك؟

ـ الحمد لله.

ـ أين عمار وكامل؟

ـ موجودان.

بعد ذلك بدقائق سمعنا جلبة أحد الحراس مناديا بخشونة:

ـ لطفي المسعودي.. وينك؟

ـ موجود، أنا هنا.

سحب الحارس لطفي، فنظرت من ثقب الباب السفلي فرأيته يسحبه راسفا في قيوده. كانت لحظة صعبة. فقد جاء أحد الحراس أثناء وجودي في غرفة التحقيق ووضع القيد في أرجل كل النزلاء ـ بمن فيهم زميلاي ـ لكن لطفي عاد بدون قيد بعد جلسة التحقيق، فقد أمر البحتر بنزع الأغلال عن الصحافيين، معلنا أنها خاصة بالليبيين فقط!

تلكم وطنية المستبدين.

قد يكون التفكير وسيلة «للهروب إلى الحرية» ـ على لغة علي عزت بيغوفيتش ـ لكنه قد يكون أيضا وسيلة لمضاعفة المأساة وتكثيف حِلق القيد. فكرت في الفنادق التي كنا نتقلب في جنباتها يمينا ويسارا قبل أيام! كما تذكرت الشوارع الفسيحة والمطارات الملأى حيوية وحركة. تذكرت أن معظم وقتي كان بين الغيوم والمطارات وشاشات التلفزيون ودواوين الشعراء. كيف سأعيش هنا إن عشت؟

لاحظت أن أقرب زملائي إلي مسافة هو كامل التلوع، إذ كان في الزنزانة رقم ١٠.

كنت أسمع صوت حِلق القيد في يديْه ورجليه كلما قام بأي حركة.

ناداني كامل قائلا:

ـ كيف حالك يا أحمد؟

ـ بخير والحمد لله.

ـ ماذا تراهم فاعلون؟

ـ أنا أرى أن الأمور ستنتهي بخير، وأنا متفائل جدا.

ـ آه.. اسمك أصلا «فال»، وهو من الفأل..، لقد أخبرني المحقق أن هذه نهايتي..

ـ كل شيء بيد ربك.

كنا نتحدث باللغة الإنكليزية تعمية على الحراس، لكنني لاحظت أن كامل كان متماسكا رابط الجأش، وهو أمر لاحظته فيه وفي رفيقنا الآخر علاء الزاوي أثناء مرورنا بالزاوية. أنهينا حديثنا متعجلين قبل أن يزجرنا الحراس، فقال كامل:

ـ هذا بعد العصر فلنجتهدْ في الدعاء!

ملأت كلمات الرجل عالمي بمشاعر يصعب قنصها في أحرف. فكّرت في عبثية أنظمة ترغم هذا الصنف من شبابها على حربها. فمعظم الشباب الذين تضطرم قلوبهم بالشوق إلى الحرية والكرامة محاصرون داخل بلاد العرب.

سيطرت كلمات كامل على تفكيري ذلك المساء، وأصبحت لا أتخيل صورته في ظلمة زنزانته إلا خيل إلي وكأن نافذة ما فتحت في جانبها المطل على الفضاء الخارجي للسجن، فأراه واقفا قرب ثقب الزنزانة في عتمة ليل ليبيا متمتماً:

يا ظلام السجن خيمْ   إننا نهوى الظلاما!
ليس بعد الليل إلا   ضوء مجد يتلالا [1]

* * *

فجأة سمعنا أحذية الحراس تقلق المكان.

ـ كامل! كامل! وينك؟

ـ أنا هنا..

ـ وينك؟

ـ أنا رقم عشرة

اقترب السجان من باب الزنزانة وفتح الباب ثم سحب كاملا بعنف. كنت أرمق المشهد من ثقب الزنزانة السفلي فرأيت السلاسل تكبل رجلي كامل. ثم سمعت سجانا آخر يعلق ساخرا:

ـ هذا هو! هذا الذي يقول: «جئتك يا نالوت فاتحاً»... وينشد نشيد الملكية! توّ تشوف يا بغل!

ـ أيوه هذا هو... دور مش... لف... امش! يا خائن!

ثم ابتلعت الممرات الصامتة صراخ السجانين، وصلصة الحديد في رجلي كامل.

وقف الطبيب الهادئ مغمضَ العينيْن مغلولَ اليدين إلى الرجلين داخل غرفة التحقيق. كانت مساحة الغرفة خمسة أمتار مربعة يقف داخلها أربعة جلادين.

---

(١) البيتان للشاعر السوري الحموي نجيب الريس.

بادر أحدهم قائلا:

ـ أيوه يا بغل! يا خائن... هل تعرف ما هي عقوبة الخائن حسب القانون؟ الإعدام... لكن الإعدام أمر في غاية الرحمة فلا تحلم به الآن.

كان صوت المحقق خشنا متقطعا يخيل إليك أن نبراته تنتزع من داخل جسم صاحبه انتزاعا. فنبرات الصوت تخرج مع نفس عميق يشي بضخامة الجثة، وبسنوات من إدمان التدخين.

أردف الجلاد وكأن كلماته سياطا من لهيب جهنم:

ـ أيوه يا غدار! توّ تشوف!

فجأة قبضت يد من حديد على رقبة كامل ثم أمسكت أخرى بقدميه، ثم ما لبث أن تناوشته سياط جهنم.

كان السجان يضرب والمحقق يصرخ متشفيا على وقع السياط:

ـ أيوه! جئتك يا نالوت فاتحا... اعطيه... اعطيه... دعه يعرف هل جاء فاتحا أم لا؟ هل سمعت قط عن الضيافة؟ ستنال منها ما تقر به عينك .

بدأت رعدة تسري داخل جسم كامل كأنها صعقة كهربائية بعد استمرار الضرب بعض الوقت. أحس بداية بآلام تتنازعه. كان لا يعلم أين هي ولا أين تتركز. كل ما يعلم أن آلاما يصعب أن يتحملها جسم بشري تسكن كل ذرة من جسمه.

لكن قلبه بدأ ينبض فجأة فرحا عندما أحس بالألم

يتناقص ظنا منه أن لحظة الرحيل إلى العالم الآخر قد حانت. كان يفكر وسط أمواج الأخيلة والآلام والسياط والصرخات في عالم العدل الذي قد ينتقل إليه خلال لحظات.

ذلك العالم الذي لا سلطان للقذافي ولا لأبنائه عليه... عالم العدل السرمدي.

لكن الماء البارد الذي بدأ يتقاطر من علا صفحة وجهه أكد له أن حلم الموت حلم بعيد...

بعيد جدا، بُعْدَ الرحمةِ من قلوب المستبدين، وبعد مُثُلِ حقوق الإنسان عن أروقة مخابرات القذافي.

كان الماء البارد يتقاطر من علا وجهه بينما كان يشعر في الوقت نفسه بعطش شديد. ماذا لو تحرر الإنسان من سلطان الطبيعة ومن سجن الجسد.. تلك الكتلة المادية التي تصبح عالة على الروح في مثل هذه المواطن.

- أيوه... لقد قال رفاقك كل القصة فلا تتعب نفسك بالكذب والدجل. إن لدينا كل القصة من ألفها إلى يائها.. بعضها من اعترافات رفاقك والبعض الآخر من مصادرنا الخاصة. أنت من سيدفع ثمن اللف والدوران... أما نحن فلدينا السيجارة وكأس الشاي ويمكننا أن نظل هنا أشهرا.

ثم نهره صوت آخر:

- اسمع ياخائن، لقد بدأ التحقيق في العاشرة صباحا وها نحن نقترب من منتصف الليل! والله إنك لشيطان!

- القصة هي كما أخبرتك. لا زيادة ولا نقصان عندي.

وقف المحقق يزبد ويرعد ثم نادى بأعلى صوته:

- يا حاج! جيب الفرُّوجْ.

ثم التفت إلى كامل قائلا بسخرية:

- هل تحب الدجاج المحمر؟ إنه لذيذ؟ ما رأيك فيه؟

تقدم أحد الزبانية وربط يديه ورجليه ثم وجد نفسه معلقا.

كان أحد الزبانية يسخر ضاحكا:

- أيوه يا طبيب! أنت الآن دجاجة! ينقصك فقط أن تُصلى شيئاً من النارِ حتى تحمرّ. سنأتي بالنار...

ثم تواصلت الأسئلة والضرب على القدمين بهرى كأنها اللهب.

كان كامل يسافر أثناء ذلك إلى عالم غريب.

عالم يرى فيه وجه أمه ووجوه أخواته وزوجه وأصدقائه. كان يحادثهم... ثم يفيق فيرى أنه لا زال هنا.. سجين الجسد. كان كلما أفاق يحمد الله على نعمة الإغماء!

ألا ما أعظمها من نعمة!

كأن ربك وضع خاصية الإغماء في الجسم نكاية في المسبدين.

يسافر ثم يعود..ليرى أنه هنا... معلق وسط صرخات الجلادين.

بعد أيام من التعذيب أحس كامل بأصوات فرقة جديدة من الزبانية تدخل حجرة التعذيب.

كان يومها قد جرب من أصناف التعذيب «الفروج»[٢] «والبلانكو»[٣]. كانت أصوات أحذيتهم الخشنة تزلزل كيانه وهو في غمرات من الألم بين الحياة والموت. لكن صوت أحد المحققين زلزل المكان صائحا:

ـ أنا أعرف ضربك من الناس جيدا. لقد مر علي في هذه الغرفة آلاف من أمثالك. يحاول الواحد منكم أن يتماسك لكن السلخ والجلد في النهاية يتحكمان. تو تشوف! يا حاج: جيب العصا!

لم يعرف كامل ماذا حدث بالضبط. لكن رعدة فظيعة كانت تسري في كل عروق جسمه كلما لمسته تلك العصا. كان المحقق يمسك عصا متوسطة الحجم في نهايتها عازل وبها زر. كان المحقق كلما ضغط على الزر يحس كامل أنه دخل دركات جهنم.

كانت العصا تدور على كل أجزاء جسده بما فيها الأعضاء التناسلية.

يفيق بعد ساعات التعذيب فيتوسل ليسمح له بالصلاة، إذ كان ينتظر ملك الموت كل حين.

قاطع أحد الزبانية مرة قائلا:

ـ حرام عليكم! دعوه يصلي!

---

(٢) الفروج حسب مصطلحات التعذيب في السجون الليبية هو أن تجمع اليدان والرجلان للخلف ويعلق الإنسان ثم يضرب على باطن القدمين.

(٣) البلانكو: أن يعلق الإنسان من يديه ورجليه.

حاول أن يقف على قدميه اللتين تحولتا إلى بالونيْن من الانتفاخ فسقط..

فزلزلت الضحكات المكان.

ثم انطلق صاحب الصوت الخشن قائلا:

ـ أيوه أنت ضابط مخابرات في جهاز أي أم ٦ البريطاني ومتعاون مع قناة الجزيرة الصهيونية وتريد أن تصلي؟ عن أي صلاة تتحدث؟

كانت بعض الكلمات تجد طريقها إلى عقل كامل، وكان بعضها الآخر لا يصل إلا مشوشا وبعيدا... كأنه وسوسة الجن في عوالم غريبة.

* * *

استمر التحقيق بشكل شبه يومي معي ومع زملائي. ثم بدأ روتين السجن يستقر. بدأنا نتعرف نسبيا على المكان. كان في إحدى الزنزانات رجل يقرأ القرآن قراءة رائعة، لكنه كان يعاني من مشاكل نفسية.

ففي إحدى الليالي بدأ يكبر بصوت جهوري مملوء سعادة:

ـ الله أكبر! الله أكبر!، لقد قتل سيف القذافي...، هل سمعتم الخبر؟

فبادر إليه أحد الحراس وقرّعه قائلا:

ـ أيوه سمعنا، اسكت يا راجل، اسكت!

كان يلعب بصوته بشكل عجيب، فمرة يبكي ومرة يضحك بشكل هستيري.

وسط ذلك كنا نحاول أن نتواصل بالصراخ كأننا مجموعة عميان.

مرة ناداني الزميل لطفي:

- كيف حالك يا أحمد؟

- بخير..

- نحن في أيد أمينة!

قالها لطفي مازحا، محاولا تذكيري بأنه كان يطلب مني الاحتياط في بعض الأمور الإجرائية فأجيبه: «نحن في أيد أمينة». ثم تطور الموقف لاحقا فأصبح هو وعمار ينادياني بشكل دائم بـ«أبي أمينة».

(١١)

فجأة جاء الأجش بقامته الفارعة وصوته المبحوح..

ما إن أحس السجناء بصوته حتى تعالت الطلبات من كل جانب:

ـ يا حاج، اعطني سيبسي (سيبسي باللهجة الليبية تعني سيجارة) يا حاج الله يرحم والديك!

ـ أيوه! وينك؟ مين يتكلم؟

ـ يا حاج.. الله يرحم والديك ساعدني!

أصبحت أطمئن ـ نسبيا ـ إلى الأجش، فهو يشعرني بنوع من الطمأنينة كلما تحدثت معه. فهو الحارس الوحيد الذي يدخل معي الزنزانة ويترك بابها مشرعا أثناء الحديث، رغم حرصه على أن لا يزودني بأي خبر مما يختلج في ضمير الكون من أحداث.

قال لي:

ـ ألم نقل لكم إنها حقيرة؟ لم تكتب عنكم أي خير!، بخلت عليكم حتى بخبر في الشريط السفلي في الشاشة،

وأنتم تضحون بحياتكم من أجلها. يا خسارة يا أحمد! يا خسارة!

كنت أرد بالاستغراب لأشعره بمستوى من الاطمئنان إليه، ثم إني لم أستبعد أن تكون الجزيرة لم تبث نبأ اعتقالنا نظرا لإمكانية التفاوض أو الخوف على سلامتنا. وقف الأجش في مدخل الزنزانة وأخرج سيجارة وقدمها إلي. بادرته قائلا:

ـ شكرا جزيلا، أنا لا أدخن.

ـ كم عمرك يا أحمد؟

ـ ٣٤ سنة.

ـ أنت تشعرني بأني عجوز.

ـ لا، أنت ما زلت شابا يا رجل. لكن قل لي، أليس لديك أطفال، فأنا أسمع صوتك هنا ليل نهار؟

نظر إلي نظرة مترعة بالانكسار وغمغم كأنه يريد أن يجيب، لكنه لم يتكلم. أحسست أن نفسه تكاد تسيل شفقة علي في تلك اللحظة...، وعلى نفسه.

قد يفكر في هذا المسكين وفي زملائه. مساكين كلهم أصغر مني من مواليد السبعينيات، لكنهم انتهوا هنا بين هذه الجدران الصامتة.

ما الفرق بيني وبينهم؟، هل أملك لنفسي غير الحق في أن أكون عبدا؟، ماذا أملك؟

كان يحاول تفادي النظر إلى وجهي فيدير وجهه في الاتجاه الآخر، نافثا دخان سيجارته.

رددت النظر إلى فيه وأحسست لسان حالي يخاطبه بذلك اللحن الحزين:

«إنا رفاقك أيها الجندي الحزين!

إنا رفاقك في المصير

في الفقر في المرض اللعين!

يا يسقط الأوغاد أعداء الحياة

صوب سلاحك نحوهم، نحو اللصوص

إنا رفاقك، أيها الجندي الحزين[1]

* * *

بدأت أتأقلم مع عالمي. فمع أن المصباح مضاء طيلة الأربع والعشرين ساعة إلا أنني بدأت أميز الأوقات. ففي الضحى كانت مجموعة من النمل تمر قرب وسادتي فأسعد بزيارة هذا المخلوق العجيب أيما سعادة. كل السلاسل السود والبوابات الصماء والجند المدجج لم تفلح في منع هذا الكائن العجيب من الدخول.

في أحد الأيام جاءني صوت الأجش:

ـ أحمد فال تعال! يريدك الحاج!

مشكلة السجين أنه مثل الطفل، يأتيه السجان فيأخذه أنى شاء. فلا حقيبة ولا ملابس ترتب، هو طفل كبير ينتظر

---

(١) من قصيدة للشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي.

الأوامر لينفذها. يأمره أي حارس أن يتبعه فيفعل، رغم أنه لا يدري إلى أين يسير. فلا السجين يسأل ولا الحارس يجيب إن سُئل، مع أنه في معظم الأحيان لا يعرف الكثير هو الآخر.

- امش..، روح..، خيرك..!، اطلع درج..، لف..، ادخل..، ستحفظ الطريق..، روح..، قف..!

ثم جاءني صوته... نحيلاً شاكّاً كالعادة.

- كيفك يا سيد أحمد؟

- بخير والحمد لله.

- أيوه يا سيد أحمد، أين توقفنا في المرة الماضية؟

- لا أدري.

بدأ التحقيق مكرراً في هذه الجلسة. فليس لدى الرجل ما يسأل عنه أو يشك فيه. فأنا في النهاية مجرد صحافي عابر ليس لديه ما يخبئه ولا ما يقصه. كل ما عندي وما رأيت يوجد في ذاكرة الكاميرا التي قبض عليها معنا.

- يا سيد أحمد، المذكرة السوداء التي أخذنا من جيبك لك؟

- نعم، إنها لي.

(أنا تعودت منذ فتحت عيني على الدنيا أن يكون لدي دفتر أرقم فيه الملاحظات والحكم والأشعار وضوالّ الكلام. وهو تقليد شنقيطي قديم، ويسمى هذا الدفتر بـ«الكناش»).

بدأ المحقق من الصفحة الأولى سائلا عن كل ما تقع

عليه عينه. والمذكرة في النهاية دفتر عاش في جيب صاحبه أكثر من عام متنقلا بين قارات العالم، مما يجعل من الصعب تذكر كل رقم أو كلمة فيه.

ـ قسم التصديقات... ماذا يعني ذلك؟

ـ يعني أنه عنوان لمكان تصديق الشهادات في الدوحة.

ـ هل أنت متأكد يا سيد أحمد؟

ـ نعم.

ثم واصل مع صفحات «الكناش» قارئا فيه:

ـ «هو من أهم من قاد الحزب..، وقد تكون قيادته له مفصلية نظرا لقدراته الكاريزمية»، من هو يا سيد أحمد؟

ـ هو رئيس جنوب إفريقيا جيكوب زوما .

ـ كيف يا سيد أحمد؟، هل لأننا نعاملك بلطف بدأت تقول غير الحقيقة؟، خليك على الخط يا أحمد!، نريد أن نعرف من هو هذا الشخص الذي تقيمه بهذه الطريقة؟، نريد أن نعرف... هه!، هذا هو بخط يدك!، ولا تلعب علينا، فلسنا هنا للعب، ولا أنت أتيت هنا لتعلب..!

ثم إن اللعب لا يليق بالكبار..، وأنت مراسل محترم ومحترف!

ـ أيوه يا سيد أحمد! أنت هنا تصدر حكما على شخص، نحن فقط نريد أن نعرف من هو هذا الشخص، لا غير.

ـ قلت لك إنه جيكوب زوما، كان يومها مرشح الرئاسيات

في جنوب إفريقيا، وكنت أكتب ملاحظات عنه في دفتري، وهذه طبيعة عملي.

ـ طيب، ماشي يا أحمد، لمن يعود هذا الرقم؟

ـ لا أدري.

ـ كيف لا تدري وهو موجود في مذكرتك الشخصية؟

ثم قال البحتر بعد هنيهات قارئا من الدفتر:

ـ قال الفرزدق: فإن تنصفونا آلَ مروانَ... (ثم تعثر في قراءة أبيات الشعر)،

فانطلقت مرتلا من ذاكرتي بصوت واضح:

فـإن تـنـصـفـونـا آلَ مـروانَ نـقـتـربْ
إلـيـكـم، وإلا فـاذنـوا بـبـعـادِ
فـإن لـنـا عـنـكـم مـزاحـا ومـزحـلا
بـعـيـس إلـى ريـح الـفـلاة صـوادِ
فـمـاذا عـسـى الـحـجـاج يـبـلـغ جـهـده
إذا نـحـن خـلـفـنـا حـفـيـر زيـادِ
فـلـولا بـنـو مـروان كـان ابـن يـوسـف
كـمـا كـان عـبـدا مـن عـبـيـد إيـادِ

أحسست ـ وأنا أقرأ الأبيات ـ أني خرجت من جدران السجن.

فصورة الصحراء العربية الممتدة والعيس التي تهوي فيها غير مقيدة، والنفس الثائرة في شعر الفرزدق ـ أو مالك بن الريب على رواية ـ ومحدودية سلطة الحجاج، أخرجتني من

هذا الضيق حتى أحسست أني كأنما نُشطت من عِقال. شعرت بأن كل الشعب الليبي يردد معي قول الفرزدق:

فـلـولا بـنـو مـروان كـان ابـن يـوسـف
كـمـا كـان عـبـدا مـن عـبـيـد إيـاد!

فلولا التخلف والاستعمار لما كان القذافي يتأمّر على شعب كامل. كيف يمكن لشعب فيه المثقفون والعلماء والأحرار أن يقوده رجل مثل القذافي؟

لكني أفقتُ على البحتر يقول:

- ما شاء الله! تحفظ بهذه السهولة؟، صحيح موريتانيا بلاد المليون شاعر!

- لا ليس بهذه السهولة، فقد رددت الأبيات كثيرا قبل أن أحفظها، ولذلك كتبتها أصلا في المذكرة التي بين يديك.

- أيوه أنتم الموريتانيون ما شاء الله عليكم كلكم شعراء.

- أيوه يا أحمد...، هل صحيح أن الجزيرة تقع داخل أسوار قاعدة السيلية الأمريكية؟

- لا. الجزيرة توجد عند دوار التلفزيون وسط الدوحة.

- لا لا يا سيد أحمد. توجد هناك في السيلية.

قالها البحتر، ثم صعد لهجته قائلا بعنف متصنع:

- ألا تشعرون بالعار والخزي وأنتم تعملون داخل أسوار قاعدة أمريكية؟، أكبر قاعدة في الشرق الأوسط؟

- ألا تشعر أنت بالخزي لأنك تعمل لصالح ظالم تافه مثل

القذافي؟، كيف تستطيع النوم عندما تعود إلى بيتك بعد يوم طويل من تعذيب الشباب الليبي؟، كيف تصبر على انهمار دموع المظلومين الذين يمرون أمام عينك يوميا كأنهم مجموعة زبائن؟

ثم ألا تفكر في أمهات من تعذب؟، ألا تفكر في أن اللحم الذي تعذب بين يديك لأصحابه أمهات وبنات وأخوات؟

ذاك ما أردت أن أقوله، لكنه ظل حشرجة في الصدر منع من خروجها الخوف!

ثم عزيت النفس قائلا:

ـ ما قيمة أن أناقش جاسوسا من جواسيس القذافي؟، فأنا واثق بإيمانه بفلسفة نيتشه القائمة على احتقار الضعفاء والأخلاقيين والعبيد، ولا يوجد في هذه الدنيا أضعف مني بمقاييسه. وهل أنا إلا عبد موثق بأغلاله بعيدا عن أنظار العالم في ركن قصي من ضواحي طرابلس، لا أملك سلاحا غير رزمة من المبادئ الأخلاقية اضطرمت بين جنبيّ فأقلقتني حتى أوقعتني في هذه البؤرة!

ثم بدا السكوت أمامي مغارة آمنة يمكن اللجوء إليها.

أيقظني صوت البحتر من عالم أفكاري سائلا، وكأنه يحاول ذات اللحظة إيهامي بعدم جدية السؤال:

ـ هل تعرف شخصا يعمل في الجزيرة يدعى «الجابر»؟

همست محاولا تجنب فتح نافذة تحقيق جديدة:

ـ الجابر! لا، لا أذكر. ما اسمه الكامل؟

ـ والله مش عارف...، أنا.. أنا..، أنا بسْ...

نطق لازمة «أنا» هذه المرة وكأنه يُفرغ في تمطيطها كلما بداخل رأسه من خداع وتناقض.

ذهب خيالي بعيدا، هل اعتقلت مجموعة من صحافيي الجزيرة وهم قابعون في إحدى الزنزانات المجاورة لنا الآن، وقد يدخلون علينا مصفدين بعد هنيهات؟، كيف قبضوا عليهم؟، وهل قبض عليهم في المناطق الشرقية أم الغربية؟، هل يسأل ليقارن بين أقوالنا في نقطة معينة؟

عاد البحتر بعد أن تهامس مع أحد مستشاريه قائلا باقتضاب:

ـ هو مصور يا أحمد.

ـ لا أذكره!

ثم عاد مواصلا أسئلة التحقيق حول مشاهداتنا في الزنتان والزاوية.

تزاحمت أثناء ذلك أسئلة كثيرة في ذهني، محاولا فهم السر الغامض الذي جعله يسأل بغتةً عن الزميل علي الجابر، ثم يغير مسار الأسئلة بغتة.

سار التحقيق بشكل روتيني إلى أن عاد الأجش وأخذني إلى زنزانتي.

مشكلة السجين ـ كما لخصها علي عزت بيغوفيتش ـ أنه

«يعاني ضيقاً في المكان ووفرة في الزمان»[٢]. فالزنزانة موصدة وأنت وحيد داخلها. أنت قلبها الحي وسرها المكبوت، فلا كتاب ولا مؤنس. لذلك لا يبقى إلا «الهروب إلى الحرية»[٣] مجسداً في السفر إلى الماضي والتفكير في المآل.

كنت أفكر كثيراً، أيامي الأولى، في أحد أعز أصدقائي، ممن اختطفه أحد الأنظمة العربية ورماه في الانفرادي ستة أشهر. تذكرت كل ما قاله لي عن سجنه، وحاولت الاستفادة من تجربته. تذكرت قوله إن السجين لا بد له من أن يصنع لنفسه برنامجا يقطع به ساعات الزمن المتواصلة. فالوقت داخل الزنزانة متواصل الأجزاء، فلا ساعة لدى السجين ولا شمس ولا قمر حتى يحس بمرور الوقت. إنما هي الجدران الرمادية الصامتة، و«البوابة السوداء» الصامتة، والمصباح الكهربائي المتدلي الموقد دائما.

تذكرت قول صديقي إن السجان يكره امتناع السجين عن الطعام. لذلك حاولت أن لا آكل إلا بقدر الضرورة. كنت ـ واكتشفت لاحقاً أن بعض زملائي كانوا كذلك ـ أقضي وقتاً أتروض، وآخر أصلي، وثالثاً للاستغفار، ورابعاً للنوم، وخامساً للتفكير...، لكن رغم كل ذلك يظل الوقت جاثماً ثقيل الوطأة يمشي كأنه مقيد.

* * *

---

(٢) علي عزت بيغوفيتش، **هروبي إلى الحرية** ([دمشق]: دار الفكر المعاصر، ٢٠٠٢)، الفقرة رقم ١١٩٣.

(٣) عنوان كتاب علي عزت بيغوفيتش الآنف الذكر.

كان مدير مكتب الجزيرة في نواكشوط ـ حينها ـ محمد بابا ولد أشفغ واقفاً في طابور الوصول بمطار الدار البيضاء قادما من نواكشوط في طريقه إلى الدوحة. لاحظ أن هاتفه المحمول يرن بطريقة هستيرية، وكان المتصل أحد مساعدي سيف الإسلام القذافي ممن ربطتهم به صلة قديمة. في أقل من ثانية، ربط ولد أشفغ بين الاتصال وقصة فريق الجزيرة المختفي في ليبيا منذ أيام.

ـ آلو..

ـ نعم، أهلاً وسهلاً..

بدأ بابا يرحب بالمتصل الليبي بطريقته المعهودة. فالابتسامة والضحكة المجلجلة مفاتيح بابا التي يتفنن من خلالهما في فتح القلوب كيف يشاء. بعد ثوان بادره الليبي قائلاً:

ـ أردت أن أخبرك أننا اعتقلنا مراسلكم في جنوب إفريقيا والفريق الذي معه. هو وفريقه بصحة طيبة.

تلقى ولد أشفغ الخبر كأنه تحفة قادم أو شفاء مريض. فخاطف صديقه الليبي الحديث متعجلا، وانقطع الاتصال.

فذلك أول خبر يؤكد سلامة الفريق ويوحي بأن النظام الليبي لا يبيت نية سيئة تجاهه.

خلال دقائق وصل الخبر إلى مكتب أعلى سلطة في شبكة الجزيرة: الشيخ حمد بن ثامر آل ثاني، رئيس مجلس إدارة الشبكة.

كان الشيخ حمد بن ثامر غارقا في الكثير من الوساطات

والجهود على كل الأصعدة محاولا الإفراج عن الفريق، لكن لم يكن قد وصله خبر شبه رسمي ـ من طرف الليبيين ـ بسلامتنا، لذلك وقع عليه الخبر بردا وسلاما. فقد عرفت عن الرجل أبوته لكل من يعمل في شبكة الجزيرة، واهتمامه بتفاصيل الشارد والوارد من هموم الشبكة وعمّالها.

كان قد مر على اعتقالنا حينها سبعة أيام.

ما إن وصل محمد بابا مطار الدوحة حتى بدأ ـ بالتنسيق مع إدارة الجزيرة ـ سلسلة من الاتصالات بديوان الرئيس الموريتاني محمد ولد عبد العزيز من أجل التدخل للإفراج عني وعن بقية الفريق، إذ ظل الرئيس محمد ولد عبد العزيز يحتفظ ـ حتى تلك اللحظة ـ بعلاقات دافئة مع النظام الليبي، ثم إنه كان رئيس اللجنة الإفريقية الناشطة في الوساطة لإيجاد حل للأزمة الليبية.

أخبر المستشار الأمني لولد عبد العزيز ولد أشفغ أن الرئيس كلم الليبيين، وأنهم تعهدوا بالإفراج عني، كما تعهدوا له بنقلي إلى مكان أفضل من حيث الإقامة.

(١٢)

صباح السبت ١٢ من مارس، وبعد ثمانية أيام على اعتقالنا، جاء الأجش فجأة واقتادني إلى غرفة التحقيق. بادرني البحتر قائلاً:

- يا سيد أحمد، نريدك أن تحدثنا من جديد عن كل خطوة خطوتموها على التراب الليبي، وسنصور أقوالك بالفيديو. سننزع عن عينيك الغطاء. ثم اقترب مني وأزال الغطاء فرأيته لأول مرة، بعد أن ظلت صورته عندي منسوجة من نبرة حباله الصوتية.

كان قصير القامة ممتلئ الوسط، أشيب الشعر سبطه، شتيت الأسنان، رقيق الشفتين، توحي لك عيناه بمكر ودهاء. عندما حملقت فيه والتقت عيوننا للمرة الأولى شعرت وكأني ضبطته متلبسا بجرم. إذ كان يحرك حدقتيه بسرعة كأنهما زئبقتين. بدا دائريَّ الوجه، أحمر البشرة، أزرق الملابس.

رجع إلى مكان جلوسه، فرأيت بين يديه كثيرا من الورق في ملف أزرق، وعن يمينه كاتبه.كان كاتبه أربعينيا، أبيض البشرة، أصلع الهامة، هادئا، توحي لك ملامحه بالكثير من الطمأنينة.

التفتُ يمينا ـ وأنا أتمتع بعيني للمرة الأولى في غرفة التحقيق ـ فلمحت شابيْن في مقتبل العمر، وبيد أحدهما كاميرا فيديو متوسطة الحجم من نوع سوني، فذكرتني بتلك التي استخدمتها لتسجيل أول تقرير أنجزته لقناة الجزيرة.

كان ذلك في أعماق جنوب إفريقيا داخل محمية طبيعية اسمها «ماكالالي». برزت أمام عينيْ مخيلتي صورتي داخل تلك المحمية وأنا أتجول موفور الكرامة في منطقة من أجمل ما خلق ربك على هذا الكوكب. كان ذلك في سبتمبر من عام ٢٠٠٨، وكان ربيع جنوب إفريقيا يختال ضاحكا من الحسن...، يكاد يتكلم رونقا وبهاء. ذاك عالم ضاع من بين يديّ في لمحة البصر، وها أنذا في الدرك الأسفل من أقبية استخبارات القذافي. استيقظت من همومي على صوت أحد الشابين يقول لي في ارتباك، وكأنه اكتشف هويتي فجأة ولم يكن جاهزا لذلك:

ـ عليك أن تنظر دائما إلى العدسة، واحذر أن تلتفت يمينا أو شمالا أثناء الحديث.

ـ أبشر!

فقاطع البحتر قائلا:

ـ أيوه يا سيد أحمد. نريد أن نبدأ من البداية...، من لحظة اتخاذ القرار في الدوحة حتى وصولك إلى هذا المكان. عليك أن لا تتجاوز شيئا حتى لا نضطر إلى وقف التسجيل وإعادته من جديد. ثم إنك إذا قلت أشياء غير صحيحة سنوقف التسجيل لنستأنف من جديد.

بدأ التحقيق من جديد وبدؤوا يسجلون. كان اللافت أثناء التسجيل أن البحتر يطلب مني إعادة بعض الجُمل أحيانا، وبالطريقة التي نطقتها بها أول مرة، مما أشعرني بأنهم يفكرون في نشر شريط مفبرك مني ومن زميليّ للإضرار بنا وبالجزيرة إعلاميا.

بعد ساعات أخذني الأجش إلى زنزانتي.

بعد رجوعي للزنزانة أحسسنا بحركة دائبة في العنبر. ثم رأيت من خلال ثقب البوابة كامل التلوع يرسف في أغلاله، فكادت نفسي تذهب حسرات ضيقا بالقيد الذي في رجليه. بعد ذلك بقليل رأيت علاء الزاوي، ثم سمعت صوت منير بسيم، والحاج فضل. كان واضحا أنهم يخرجون كل الليبيين، وكأنهم سيحولونهم إلى مكان آخر.

تكوّمت في ركن زنزانتي وأنا أرقب حركة رفاقي الليبيين، وهم يساقون إلى مكان أجهله، فتزاحمت أسئلة في ذهني من قبيل: إلى أين؟، هل إلى الحبال المتدلية للشنق؟، أم هو القتل رميا بالرصاص؟، أم مجرد تحويل إجرائي من مكان إلى آخر...؟

فاستيقظت على صوت الأجش:

ـ فال! تعال! جهز نفسك!.

فاستغربت لماذا يطلبونني رغم أني عدت من التحقيق قبل قليل. هل سيأخذوننا كلنا معاً؟، ثم إلى أين نسير؟

هل سيذهبون بنا إلى سجن آخر؟، أم هي التصفية الجسدية؟، أم ماذا؟

أسئلة ظلت تختلج في ذهن صاحبها لتزيد من عذاباته.

وضع الأجش الخرقة على عيني، وأخذ بيميني بينما أمسكت بنطالي بيدي الأخرى.

- اطلع! لف! امش!

في الطريق إلى غرفة التحقيق هذه المرة كانت هناك فرقة كأنها خاصة بالتأثير النفسي على السجين. كانوا يسخرون من مظهري ويضحكون بشكل هستيري، ثم دفعني أحدهم في الظهر ساخرا:

- هذا هو الصحافي! ما شاء الله.

أوقفني الأجش في مكان أحسسته مفتوحا وانصرف.

جاء عسكري آخر وطلب مني أن أرفع يدي وألصق وجهي بالحائط. بدأت الأسئلة تتزاحم: ما هي الخطوة القادمة؟، ضغط على الزناد فالدار الآخرة؟

بعد قليل سمعت صوتا يقول:

- من هذا؟

- هذا صحافي الجزيرة.

- لا! لا!، شو دخلنا فيه!، فكني منه، رجعه!.

جاء عسكري واقتادني إلى غرفة أخرى. ما إن جلست فيها حتى شق هدوءَها المخيفَ صوتٌ خشنٌ فظٌ يصيح:

- يا كلب يا خائن. سترى نتائج فعلك. جلستم في الزاوية تكذبون وتروجون الكذب..، ستندمون! لقد شكلت لجنة

من أربعة عشر قاضيا وسيحكمون عليكم بالإعدام. ستكونون عبرة للمعتبر. أمامك أسبوعان تقريبا قبل الموت، عليك أن تكثر من الصلاة والاستغفار فيهما ـ إن كنت مسلما ـ علّ الله أن يغفر لك بعضا مما اقترفت. يا راجل عيب. لديك بنتان ستتركهما لليتم والاتكال على الغير. أما كان من الأجدى أن تربيهما بنفسك بدل أن تتركهما عالة يتكفّفون الناس؟

وسكت هنيهة، ثم قال محاولا الإيهام بالتأثر من حال الضحية أمامه:

ـ ما اسم بنتك الصغرى؟

فلم أتكلم.

فقال بغلظة:

ـ أجب! ما اسم بنتك الصغرى؟

ـ اسمها لبنى.

ـ كم عمرها؟

ـ عام واحد.

ـ يا راجل حرام!، ستتربى دون أن ترى وجه أبيها يوما!، أليس من العيب أنك تسببت في ذلك؟، ستتربى محرومة من عطف الأبوة. لماذا فعلت كل ذلك؟، أمن أجل أن تحصل الجزيرة على أخبار كاذبة؟

كانت كلمات الرجل تنغرز أسهماً صدئة بين جوانحي. فالإنسان مخلوق عاطفي ضعيف رغم كل الأقنعة التي يرتديها أشداء الرجال.

فكرت أثناء ذلك في أن الأمر قد لا يتعدى إرهابا نفسيا، إلا أنه ما إن قال: «ستترك بناتك يعيشون على فُتات الناس»، حتى استيقظت من ذاكرتي أبيات قديمة من الشعر الجاهلي يصور فيها أعرابي هذه الحالة النفسية:

لـولا أمـيـمـةُ لـم أجـزعْ مـن الـعـدمِ
ولـم أجُبْ فـي الـلـيـالـي حِنْدِسَ الظلـمِ
وزادنـي رغـبـةً فـي الـعـيـش مـعـرفـتـي
ذلَّ الـيـتـيـمـةِ يـجـفـوهـا ذوو الـرحـمِ!
أخـشـى فـظـاظـة عـم أو جـفـاء أخ
وكـنـت أُبقِي عـلـيـهـا من أذى الكـلـمِ[1]

لقد استيقظت فيّ هذه المعاني الإنسانية التي يبدو أنها كانت متوارية في أخاديد داخل نفسي لم أطلع عليها أبدا.

غريبة أنت أيتها النفس الإنسانية!

فرغم أنها نفسي التي أحمل بين جنبيّ، فإنني لم أطلع قط على هذه المغارات التي وقعت عليها داخلها فجأة...، مغارات عميقة من الخوف والألم والتشبث بالحياة، بدت لي في تلك اللحظة شطآناً غريبة في عوالم غريبة.

كنت قد قرأت عن ألاعيب رجال التحقيق وأكاذيبهم، وعزفهم على وتر الأبناء للضغط النفسي، لكن كل ذلك لم يفد...

---

(١) الأبيات في حماسة أبي تمام، وصاحبها هو الشاعر إسحاق بن خلف.

أحسست وكأني مثل المدمن أو المدخن الذي يحدثك عن ضرر السيجارة بينما ينفث من بين شفتيه سمها الناقع...

وجدتني لا أكف عن التفكير في المعنى الآخر الذي اصطاده أعرابي قديم:

لقد زاد الحياة إلي حباً بناتي.. إنهن من الضعاف!
مخافةَ أن يريْن البؤسَ بعدي وأن يشربْن رنْقاً بعد صافي![٢]

ورغم أني لم أشعر بالندم على ما أتى بي إلى هنا، إلا أن هذه الأحاسيس المزعجة كانت تتملكني أثناء حديث الرجل وإبراقه وإرعاده. حاولت استجماع أشلاء النفس، ثم أفقت على صاحب الصوت وهو ما زال يواصل وعيده. بعد دقائق خرج وأغلق الباب وراءه بعنف فارتطم كأنه قنبلة انفجرت وتجمعت شظاياها المتطايرة في أعماق نفسي.

بعد نصف ساعة دخل أحد العساكر وأخذني إلى زنزانتي.

ما إن رجعت إليها حتى عاد الأجش قائلا بصوت منطلق:

ـ أين ملابسك؟، هل تود الاستحمام؟.

كانت قد مرت ثمانية أيام لم أغير فيها ملابسي ولم أستحم.

استغربت التناقض الصارخ في المعاملة خلال الساعات الماضية. أخذني الأجش إلى إحدى الغرف كي آخذ ملابسي. أدخلني ثم نزع الغطاء عن عيني فرأيت حقيبتي.

---

(٢) من أبيات تنسب لعيسى بن حدير.

تجسدت حقيبتي في تلك اللحظة كأنها صديق قديم قادم من الدنيا.كانت هي الدنيا في تلك اللحظة. لقد اختزلت الحرية أمام ناظري فيها. فهذه هي حقيبتي التي كنت أخترق بها القارات وتصاحبني في المطارات، حيث الانطلاق والتحرر. ذكرتني بالحياة الطبيعية والحرية البشرية والكرامة الإنسانية المصونة. ذكرتني بعالم كان يقال لي فيه: «لو سمحت!، وبعد إذنك..»، عالم كنت فيه حرا مختارا. عالم ضاع من بين يديّ فلتةً فهل سيعود؟.

- خذ صابونك وملابسك التي تحتاجها، قالها الأجش بصوت مفعم بالبشرى.

- لكن، إلى أين سأذهب يا صديقي؟،

رددت وقد أدخلت كلتا يدي داخل حقيبتي التي فاحت كأنها عطر عبق في ذلك المكان.

- لا أدري. لعلك ستقابل مسؤولا كبيرا. فقد قال لي الحاج إن عليك أن تستحم وتلبس وتأتيه.

قادني الأجش وسط العنبر وأنا أسمع خرط المزاليج بين الفينة والأخرى، ثم أدخلني إلى حمام. كانت المياه الساخنة بلسما يلامس جلدي، فأحس أن كل خلية فيه تصرخ شوقا إلى الحرية...، إلى العالم الآخر. العالم الطبيعي..، عالم الحرية والكرامة.

بعد الاستحمام وتغيير الملابس، أدخلت دون تعصيب عيني على البحتر، فرأيته باسم الثغر نشيط الحركة. ما إن دلفت إلى الغرفة وأزيل عني الغطاء حتى بادرني قائلا:

ـ أنت الوحيد الذي أسمح له بأن يراني ـ الحقيقة أنه منذ اضطر لإزالة الغطاء عن عيوننا أثناء تصويرنا أصبحنا نراه كلنا دون غطاء، حسبما أخبرني الزملاء لاحقا ـ ثم إني أريد أن آخذكم في جولة في طرابلس حتى تعرفوا الفرق بين ليبيا كما تصورونها أنتم وليبيا كما هي في الواقع. فهل أنتم مستعدون للظهور في التلفزيون الليبي لتتحدثوا عما رأيتموه؟

قلته له دون تردد:

ـ نعم، نحن مستعدون لذلك.

كان هدفي من ذلك أن نؤكد لأهلنا وللجزيرة أننا لا نزال على قيد الحياة، إذ كنت أعتقد أن هذا هو أهم سؤال يقلقهم. تابع البحتر وقد غض من صوته قليلا:

ـ إذن سنتحرك بعد قليل في اتجاه التلفزيون الليبي.

قال لي البحتر بعد أن وقف طويلا باحثا وسط أوراق عن شيء كأنه أضاعه:

ـ هل لبست ملابسك، وهل تحتاج إلى ملابس؟

ـ لا، شكرا. هذه الملابس جيدة وكافية.

جلس وبدأ يسألني كأنه يبدأ التحقيق معي لأول مرة. طلب مني أن أحكي قصة دخولنا من البداية إلى النهاية. كنت أحاول أن أسمعه ما يريد بخصوص مشاهداتي في الزاوية، محاولا إقناعه أن الإفراج عنا قد يفيدهم إعلاميا. فخاطبته مصطنعا الصدق في نبرات صوتي:

ـ لو خرجنا من الاعتقال سنوضح للعالم حقيقة ما يجري في ليبيا.

فقاطعني قائلا بلهفة:

ـ كيف؟

ـ سنشرح لهم أننا رأينا في الزاوية مسلحين وأن الثورة لم تعد سليمة! لم نر نساء في ميدان الشهداء ولا رأينا أطفالا!

فأحس أني قد أكون أحاول خداعه فقاطعني:

ـ لكن ما هي الضمانة يا أحمد؟ ما الذي يضمن لي أنكم ستنقلون الحقيقة بهذه الطر يقة؟

فحاولت اصطناع الجدية وقلت:

ـ لقد علمني أبي في صحراء موريتانيا «أن الرجل كلمة». وأنا أعطيك كلمتي. أعدك أن نحكي للعالم، ولوكالات الأنباء حقيقة ما يجري وما رأينا.

حاولت جاهدا إقناعه. إذ أحسست أنه يدبر لأمر ما، وأن التحقيق انتهى فأردت أن أقنعه أن الإفراج عنا أفضل لهم إعلاميا من إعدامنا أو إبقائنا رهن الاعتقال.

كان واضحا لي أن البحتر يحاول أن يكون طيبا ودودا في هذه الجلسة، حتى أنه طلب مني أن أقرأ عليه شعرا للمتنبي في نهايتها ففعلت. كان المحزن أنه طلب هجاء كافور!

ثم أنهى الجلسة قائلا:

ـ عليك العودة إلى الزنزانة على أن نتحرك بعد عشر دقائق

إلى قناة الجماهيرية. مرت الدقائق والساعات. ..، لكن أحدا لم يأت إلي.

بعد عدة ساعات خرط الأجش بقوة مزلاج زنزانتي قائلا:

ـ جهز نفسك!.

ـ إلى أين يا صديقي؟

ـ سينقلونك إلى مكان أفضل من هذا.

ـ شد الخرقة على عيني ثم قادني من يميني.

ـ امش!، اطلع درج، لف، امش!، امش..، قف.

نزع الغطاء فوجدتني على أعتاب زنزانة جديدة. كانت مفروشة فراشا طبيعيا وبها سرير وطاولة، بالفعل كانت زنزانة خمس نجوم هذه المرة. جاء مسير السجن وهو ـ شهادة لله ـ رجل حسن الخلق، تشعر عندما تنظر إليه بأنه يعمل في المكان الخطأ. كان مهذبا خلوقا طيب الروح. قال لي أول مرة عندما زارني في زنزانتي في ليلتي الأولى في السجن:

ـ أنا لا علاقة لي بالتحقيق، ولا بالسجن، ولا بالإفراج. صلاحيتي تتمثل في توفير الطعام والشراب لكم، فلو احتجت إلى شيء فأنا هنا لمساعدتكم، وأسأل الله أن يفرج همكم ويكشف كربكم، وأوصيكم بالدعاء الدائم.

لم أتمتع ببحبوحتي الجديدة. فقد ذهب فكري بعيدا. كنت أخاف أن يكونوا وضعوني في هذا المكان نظرا لمطالب يريدون مني تلبيتها أو نيات يبيّتونها، وفقا لسياسة الترغيب

بعد الترهيب، فتضاعفت همومي، وشعرت وكأن جبالا من الهم نزلت على كاهلي. لماذا أنا دون زملائي؟، وما هو مصيرهم؟ (سأعرف لاحقا أن تدخل الرئيس الموريتاني كان السبب وراء الزنزانة ذات الخمسة نجوم!).

كنت في زنزانتي الأولى على الأقل قريبا منهم، أسمع صلاتهم ودعاءهم، وأطمئن عليهم بين الفينة والأخرى. أما الآن فأنا بعيد عنهم، ولا يوجد أي اتصال بيننا، والله أعلم بما يبيّته لي رجال المخابرات بعد نقلي إلى هذه الزنزانة المريحة.

كان لطفي داخل زنزانته غارقا في همومه عندما سمع النداء باسمي. تأكد هو وعمار أني ذهبت ولم يعرفوا إلى أين. مشكلة السجين في مثل هذه الظروف أنه لا يتوقع إلا الأسوأ في معظم الأحيان. تُرى هل ذهبوا به للإعدام؟ جاؤوا بُعيْدَ المغرب واقتادوه... ترى إلى أين؟، رحمك الله يا رفيقنا!

جاءني مسير السجن في زنزانتي الجديدة، ثم قال لي بوجه متهلل وهو يناولني عصيرا وفاكهة وملابس:

- سآتيك بتلفزيون يلتقط قناة الجماهيرية!

عبرت له عن شكري، لكنني ترجيته أن لا يأتني بالتلفزيون، فقد كنت أحسب أن فرحي أو قبولي لأي تسهيل لي سيكون على حساب نظرتهم إلي، أو قد يضعف مواقفي. لذلك كنت أؤول كل ما يقومون به على أنه سياسة ترغيب باردة. غاب مسير السجن قليلا فدخل الأجش، وعندما لاحظ أني سأرى التلفزيون الليبي قرر أن يتبرع لي ببعض أخبار الدنيا، فبادر قائلا:

ـ نسيت أن أخبرك، كان هناك قرار للأمم المتحدة ضد ليبيا بحظر الطيران...، اليابان تعرضت لزلزال قوي قتل عشرات الآلاف!

رأى الأجش عينيْ المسكين الذي بين يديه تبرقان لهذه الأخبار...

لا شك أن سحابة شفقة أظلته، ففكر في ضعف الإنسان ومحدودية قدراته الذاتية. فقبل أسابيع كان هذا المسكين وزملاؤه يزودون العالم بالأخبار، أما اليوم فها أنا ذا أتصدق عليه بالأخبار التي حدثت قبل فترة، فيتلقفها هدية ربانية. أنا الجندي البسيط غير المتعلم، أصحبت مصدر الأخبار لصحافيي قناة الجزيرة!.

كان الأجش يأتيني في الأماسي حاملا العشاء، فكنت كلما رأيته أسأله عن زملائي، فيجيب بأنهم بخير.

بعد يومين من نقلي إلى الزنزانة الجديدة، كان لطفي متكوّما في ركن زنزانته حزينا شارد الذهن على مصيري، إذ لم يسمع هو ولا عمار عني أي خبر منذ اقتدت فجأة من زنزانتي قبل يومين. كانا تارة يقتنعان بأني أخذت إلى المقصلة، وأخرى يرجحان أخذي إلى سجن في مكان آخر. فجأة دخل الأجش زنزانة لطفي فرأى انكساره، فاستوضح عن السبب فرد لطفي بلهجة يائسة قادمة من بعيد:

ـ والله أنا خايف على أحمد...، لا ندري أين هو.

زلزلت قهقهة الأجش الجدران الصامتة، وأدخل يده في جيبه واستل سيجارة ومدها إلى لطفي قائلا:

ـ خذ سيبسي (سيجارة باللهجة الليبية).

ـ أولا، صديقك أحمد موجود على بعد أمتار منك، وهو بخير. هو أصلا أصبح في زنزانة أفضل.

نزلت الكلمات على لطفي بردا وسلاما، فرد قائلا:

ـ الله يرحم والديك! ربي يفرحك إن شاء الله.

كانت زنزانتي الجديدة عبارة عن غرفة واسعة مفروشة بشكل جيد، وبها سريران ودولاب وطاولة وكرسي. أصبحت أستطيع أن أرى خارج الزنزانة من ثقب صغير ضيق في النافذة. كانت الزنزانة تصاقب ساحة جميلة يوجد بها موقف سيارات، ينتهي إلى باب حديدي واسع يتربع على قمته العلم الأخضر. لاحظت أن معظم السيارات الصغيرة الرابضة سيارات فارهة ذات زجاج مظلل، مما يعني أنها تابعة لجهاز المخابرات.

* * *

بدأ أسبوعنا الثاني يزحف بطيئا مقيدا، فقد لاحظنا أن التحقيق انقطع بعد اليوم الثامن، لكننا لم نتبيّن حقيقة ما يراد بنا، ولا نية من اعتقلونا.

حاولت أن أنظم وقتي بشكل جيد، وتذكرت أن أحد أصدقائي ممن عاش في السجن الانفرادي أشهرا قال لي إنه كان مشغولا جدا أثناء فترة الانفرادي!، فحاولت أن أضع برنامجا حتى أشغل بعض وقتي، لكني وجدت ذلك في منتهى الصعوبة. إذ تفنى البرامج ويبقى الوقت فاغرا فاه حيوانا مفترسا يبتلعني على مدار الساعة.

خلال يومي الثالث في زنزانتي الجديدة، وبينما كنت أرمق الساحة من الثقب الضيق، تراءت لي وسط الساحة نخلة سامقة.

أصبحت أدمن النظر إليها متعزيا بمظهرها الجليل. فقد كانت سامقة ممتدة الجذور منتصبة رغم البرد والشمس والأنواء...، ورغم محاولات المستبد إركاع كل شيء.

بدت لي غريبة في تلك اللحظة وهي تنتصب شامخة قرب زنازين المستبدين، وعلى بعد أمتار من المسالخ البشرية..

لكنها كانت شامخة واقفة رغم قامات الجند المنتصبة وصرخات العساكر...

أحسست أنها نخلة الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل هاجرت فجأة بعد أن غابت مئات السنين، ثم جاءت لتنبت بقربي مذكرة إياي بالسمو في لحظات الضعف...، والشموخ في أوقات الانكسار.

فقلت شبيهي في التغرب والنوى
وطول اغترابي عن بنيّ وعن أهلي![٣]

كان مما أنست به أحد الأيام أيضا حمامة جاءت فجأة كأنها صاروخ موجه بدقة لتنزل وتستقر قرب نافذتي.

هل أرسلتها أمي؟، هل صادها قلب الأم فحملها آلاف الرسائل، وأطلقها في الكون الفسيح علها تصادفني في لحظة ما؟

---

(٣) البيت من أبيات عذبة مشهورة للأمير الأموي عبد الرحمن الداخل.

هل أصرخ مخاطبا إياها: «نعم، أبلغيها أني بخير»!

لا، لعل ذاك ضرب من الهذيان عادة ما يمس المسجونين في الزنزانات الانفرادية!

لكني كنت أرمقها متمنيا أن تحلق مخترقة الآفاق لترفرف بجناحيها فوق الكثبان الرملية المطلة على مدينة «قَرُو» شمالا، فتخبر الأطفال اللاهين في سفح الكثبان أن أخاهم بخير!

تخيلتها ترفرف على الجدات - اللائي يتصدقن بحلي حفيداتهن من أجل عودتي سالما - لتخبرهن أني بخير.

ثم رأيتها ترفرف في هزيع الليل على بيت أم لطفي في مدينة القيروان، آتية من ناحية قبور الأولياء لتستقر على نافذة الغرفة، حيث كان ينام طفلا..، فيفهم عنها قلب الأم..، فينصت ويعي.

(١٣)

طلبت من الأجش أن يخبر مسير السجن برغبتي في مقابلته، فجاء على الفور.

ـ أريد منك خدمة سأكون لك بها مدينا.

ـ تفضل، سأكون سعيدا بمساعدتك بأي شيء ضمن صلاحياتي.

ـ أريد مصحفا وكتبا.

ـ سآتيك بالمصحف، وسأحاول أن آتيك بكتب.

بعد قليل عاد الرجل المهذب بمصحف كبير بـ«رواية قالون عن نافع»، ومده قائلا:

ـ هذا أخذته من مكتبي..، إنه مصحفي الخاص.

ـ لم أعرف كيف أشكر الرجل، أردت أن أعبر له عن امتناني العميق، وعن سروري بأن يكون من بين العاملين تحت مظلة القذافي من ينبض قلبه رحمة وعطفا مثله.

ثم عاد إلي بعد ساعات حاملا كتابين، لا أحسب أني فرحت بكتاب سعادتي بهما:

الأول: تاريخ الأدب الأندلسي.. عصر سيادة قرطبة، للدكتور إحسان عباس.

وثانيهما كتاب مترجم يتناول جماعات الضغط في الولايات المتحدة.

شكرت الرجل كثيرا من أعماق قلبي على طيبته وهديته، وعلى أنه ذكرني بنبل الإنسان الليبي وطيب أرومته، رغم كل ما حاولت الدكتاتورية تشويهه به طوال أربعة عقود.

بدأت أقرأ كتاب الأدب الأندلسي بشكل غريب، إذ كنت أقرؤه وأتحسر كلما رأيت الورق المتبقي يقل!، أصبحت أتعامل معه كما يتعامل الطفل المحروم مع الحلوى، إذ يتهيبها حتى لا يأكلها فتنفد.

آخذه من أطرافه وأقرأ، وأعيد القراءة موهما نفسي أني لم أفهم!

ما كنت أفتح الكتاب حتى ينفتح أمامي باب أدلف منه إلى الأندلس، فأقضي ساعات محادثا شعراءها وكتابها وفقهاءها وقضاتها، ثم أعود فجأة لأجدني هنا..

في إحدى الأماسي سمعت صوت الأجش قادما وصرخات السجانين البعيدة تتناوشه:

ـ يا حاج.. سيبسي يا حاج.

ـ آه! توّه.. أيوه..، وينك أنت؟

ثم وصل باب الزنزانة.

ـ كيف حالك يا أحمد.

ـ بخير..

ـ هل تعرف زميلك الذي قتل؟

ـ من هو؟

ـ اسمه علي الجابر..، يعمل مصورا، أشيب الشعر، ويرتدي نظارات.

ـ كيف قتل؟

ـ والله مانيش عارف!، تتحدث عنه الجزيرة وتعرض صورته باستمرار، متهمة الجيش الليبي بقتله، وأنا واثق من أن الثوار هم الذين قتلوه، ثم ادعوا أن النظام الليبي قتله.

كان الأجش يتحدث بينما شعرت بأن جبالا من الحزن وقعت فجأة على رأسي، شهيد آخر يلتحق بركب شهداء الكلمة..، تمثلت أمامي صورة سامي الحاج منزويا في ركن مظلم في زنزانة غوانتانامو بعيدا عن العالم، ثم زاحمتها صورة الشهيد طارق أيوب ملفوف الجثمان في بغداد..، ثم أطلت الصورة الجديدة للشهيد علي الجابر، تلمست أشيائي في الزنزانة الضيقة، ثم أسندت رأسي إلى ركنها، وأسلمت نفسي لأسئلة بدت سرمدية لا نهاية لها.

* * *

في مساء السبت، ١٩ من مارس، دلف الأجش إلى زنزانتي قائلا:

ـ جهز نفسك خلال دقائق...

قالها وانصرف حتى لا أسأله إلى أين. ارتطم باب الزنزانة بعد خروجه مخلفا أسئلة كبرى.

إلى أين؟

ظل السؤال معلقا إلى أن عاد الأجش بعد دقائق وبيده قيد بلاستيكي، ذكرني بذلك القيد الذي ما زلت أحس خدرا في يدي بسببه، رغم أني قيدت به ساعات فقط. توسلت إليه أن لا يشدَّ يدي وراء ظهري بل من أمامي، ففعل.

ـ إلى أين سيأخذونني يا صديقي؟

ـ سيأخذونكم إلى مكان أكثر أمناً من هنا.

ـ هل سيأتي زملائي معي؟

ـ نعم، ستراهم الآن وستتحدثون مع بعضكم البعض.

وقع كلامه علي بردا وسلاما، وضع الخرقة على عيني واقتادني، أحسست أني خرجت من المبنى، فنزلت أشعة الشمس على وجهي كأنها ضيف قادم من مدائن بعيدة. اختلطت أصوات العساكر بجمل من قبيل:

ـ اركب..، ارفع رجلك..، اجلس..، ادخل..، ابتعد قليلا!

بعد قليل جاءني صوتا زميليّ لطفي وعمار.

ـ كيف حالكما؟

ـ بخير والحمد لله.

ـ كيف أموركما؟

فجأة جاء صوت فظ من خارج السيارة:

ـ اسكت وإلا فسأقص لسانك!، نحن نعاملكم باحترام..، لكنكم إذا لم تسكتوا فسترون معاملة من نوع آخر!

ابتلع كل منا ريقه وماتت الأحرف المنطوقة على شفتيه، لكن أسئلة كثيرة يضيق بها ذهن كل منا ظلت تصرخ!

إلى أين نحن سائرون؟، هل إلى سجن آخر تمهيدا للحرية؟، أم إلى سجن سرمدي!

هل سيأخذوننا إلى أحد السجون لندخل ونرى فجأة موسى الصدر (الزعيم اللبناني الذي يتهم القذافي باختطافه)، ومنصور الكيخيا (وزير الخارجية الليبي والمعارض الذي يتهم أيضا القذافي باختطافه) مقيدَيْن بالسلاسل في مشهد سِيزِيفِي، فنصبح فُجاءةً جزءاً منه!

أم أننا في طريقنا إلى الساحة الخضراء ـ كما أخبرني أحد ضباط المخابرات من قبل ـ لنحاكم علانية ويطلق علينا الرصاص، تنكيلاً بالجزيرة وبكل رواد الكلمة؟

لم لا؟، ألم يقم القذافي سنة ١٩٨٤ بمحاكمة علنية في ملعب لكرة السلة ببنغازي للشاب الليبي حامد شويهدي، وشنقه علنا في نفس المكان، أمام آلاف النساء والأطفال الذين أتت بهم حافلات خاصة وكأنهم سيتفرجون على حفل موسيقي بديع!

كل شيء ممكن عندما تجد نفسك في حبائل معمر القذافي.

تحركت السيارة على وقع هذه الأسئلة المزعجة، بينما كانت آخر كلمة سمعناها من العساكر هي:

ـ لو تكلم واحد انقصْ لهْ لسانهْ!

ما إن واصلت السيارة السير عدة دقائق حتى أحسست بأنها استوت على طريق سريع. ثم سارت بعض الوقت، فتأكدتُ أننا أصبحنا داخل مدينة كبيرة. كانت أصوات منبهات السيارات وحركة الحياة في الشارع موسيقى عذبة تستقر في أذني، بعد أسبوعين من الصمت المطبق إلا من مزاليج أبواب الزنزانات.

أحسسنا بأن السيارة توقفت، ثم سمعنا أصوات مجموعة من العسكر وكأنهم يفتحون بابا حديديا. دلفت السيارة بهدوء داخل الباب الحديدي وابتلعها مبنى لم نر شكله لكننا تخيلناه.

اقترب أحد العسكر وأخرجنا واحدا تلو الآخر من السيارة الغريبة، نزلنا في مكان أحسسنا بأنه مفتوح وكان الجو باردا جدا، أمرونا بالجلوس على الأرض قرب حائط. كان الجو باردا وبدأنا نسمع أصوات مساجين آخرين يبدو أنهم نقلوا معنا بالتزامن، إذ سمعت صوت الأمريكي ريتشارد بيترز، ثم سمعت صوت جزائري وتونسي.

كان السجين الجزائري يتوسل إلى أحد الجنود أن يساعده لأن لديه جرحا بدأ ينزف.

كان لطفي جالسا عن يميني وعمار عن يساري، بادر لطفي:

ـ كيف حالك يا أحمد؟

ـ بخير والحمد لله.

ـ كيف أنت؟

ـ بخير..

ـ اسمع يا أحمد، لقد أدخلوا علي في زنزانتي صحافيا من رويترز اسمه خالد، وقد أعطيته أسماءنا، وتعهد بأنه سيتصل بالجزيرة ليؤكد لهم أننا على قيد الحياة لحظة خروجه.

ـ ممتاز!، وماذا قال لك عما يجري في دنيا الناس؟

ـ قال إن صحافية أمريكية مشهورة اعتقلت مع رفاقها، وأن الدنيا مقلوبة قلقا عليها..، وأن لا أحد يتحدث عنا.

ـ آه، إذن هي ضمن ذلك الفريق الصحافي الذي أتي به إلى السجن قبل أيام، وكنت أسترق السمع إلى أحاديثهم لحظة دخولهم، لأنهم كانوا يتحدثون معهم قرب زنزانتي وكانت لكنتهم أمريكية، صحيح هم رجلان وامرأة.

بدأنا نتحدث فيما بيننا لأول مرة، ورغم أن كلا منا كان معتقلا في زنزانة انفرادية، فإن الحديث مع شخص آخر كانت فيه جدة وطراوة وأخبار.

أحسست بأني حصلت على نصف حريتي، فها هما زميلاي سالمان، يوجدان بقربي ونتحدث كيفما نشاء.

جلسنا في نفس المكان ما يقارب ساعتين ونحن نرتجف بردا.

بعد بعض الوقت بدأ لطفي يشكو من قيده، إذ إن العسكري الذي أوثقه شد يديه وراء ظهره، وهو أمر لا يكاد يوصف ألما، لأننا جرّبناه في أول أيام الاعتقال.

كان قلبي يتقطع حسرة بسبب شكوى لطفي، إذ كان

القيد مشدودا على يديه خلف ظهره بطريقة تكاد تمنع دوران الدم في الأطراف، وكان كلما طلب من أحد السجانين أن يخفف القيد أو يحوله من الخلف إلى الأمام، يرد العسكري بجلافة صائحاً:

ـ اصبر!، اصبر يا راجل!، تو تدخلو، تو تدخلو.

بعد حين سمعنا صوتا يقول:

ـ أحمد لطفي عمار..، قفوا..، تعالوا.

وقفت أنا وعمار لكن لطفي لم يستطع الوقوف بسبب القيد، فطلب المساعدة من العسكري ليقف. اقتادونا فصعدنا درجين ثم دخلنا، وأذن لنا في إزالة الغطاء عن أعيننا.

وجدنا أنفسنا مع بعضنا لأول مرة بعد أسبوعين كاملين تجرعنا فيهما الموت عدة مرات.

قفزت إلى زميليّ وتعانقنا طويلا...

كدنا نطير غبطة وسعادة...، لم نكد نصدق أننا أصبحنا في مكان واحد، وأن بإمكان كان كل منا سعيد برؤية وجوه غير وجوه السجانين.

حملقت في وجه لطفي فرأيت وجها غير الوجه الذي رأيته آخر مرة قبل ثمانية أيام. نبت ذقنه، واسمرّ لونه، ونقص وزنه.

ثم التفت إلى عمار فرأيت شعر لحيته قد طال، وبدا كأنه قادم من عالم بعيد غريب وغامض، بدا منهك القوى، ثائر الشعر.

كانت الزنزانة التي دخلناها متوسطة الحجم، بها أربعة أسرة حديدية من ذلك النوع المعروفة داخل أقبية السجون، كانت عارية بلا فراش. عند مدخل الغرفة يمينا يوجد حمام نظيف، به مكان للاستحمام، مما جعل الزنزانة تبدو أمام أعيننا مريحة ومناسبة.

أول ما لفت انتباهي هو أن الإضاءة كانت طبيعية وجميلة، والجدران مصبوغة باللونين الأزرق والأبيض. من الواضح جدا أن المكان لم يبن بداية ليكون سجنا. ولعل القذافي وجد نفسه فجأة مضطرا لأن يستخدم كل ما لديه من مؤسسات لاعتقال شعب انتفض ضده.

أول نشاط قمنا به هو رش الماء في الزنزانة وتنظيفها تنظيفا جيدا. في أثناء التنظيف دلف علينا حارسان يتطاير الشرر من عيونهما، وقاما بتفتيش دقيق للمكان. كانا يبحثان أساسا عن الآلات الحادة، فوجدا ملاعق وسكاكين مدسوسة في جوانب الأسرة الحديدية.

ما إن استقر بنا المقام حتى دخل علينا حارس أسمر السحنة، صارم القسمات، مخروط التجاعيد، يُخيل إليك - إذا تحدث - أنه منذرُ حربٍ، أو طليعةُ جيشٍ، أو طالبُ ذَحْلٍ. فهو يتحدث بقسمات وجهه ويديه، وبتلوين نبرات صوته ونظرات عينيه.

دخل علينا بلباس مدني وبيده كلاشنكوف...

دلف من الباب كأنما دُفع دفعا منحدرا من صَبَب، وجلس على السرير المقابل لنا..، وأسند سلاحه على السرير الحديدي بجنبه.

ثلاثتنا كنا جالسين متقاربين كأنما يحتمي بعضنا ببعض. كنا في دهشة من دخول الرجل بسلاح كلاشنكوف إلى غرفة ضيقة، أهذا هو مكان الإعدام؟

أخرج سيجارة وأشعلها، ثم اندفع في الحديث:

ـ من وين أنت؟

وجه السؤال إلى لطفي لأنه الأقرب إليه مسافة.

ـ أنا من تونس.

ـ آه من بلاد البوعزيزي!، البوعزيزي تاعكم هذا هو اللِّ خربها...، هذا زي الفايروس..، اعْرفتْ؟ عارف أنت الفايروس كيف ينتشر!، زيْ الفايروس، اعْرفت؟، يصفونه بأنه شهيد، أي شهادة يا رجل؟، هذا الذي كان السبب وراء كل المآسي التي يموج بها العالم العربي هذه الأيام...، أنا لا أعتبره مسلما..، هل هو مسلم؟

وصمت برهة منتظراً الإجابة فلم ينبس أي منا.

ـ والله هذا غير مسلم!، راح قتل روحه، وبعد ذلك يقولون شهيد!؟، الجزيرة الحقيرة تاعكم تقول إنه شهيد!، شهيد قتل روحه!

ـ ثم التفت سائلاً:

ـ من وين أنت؟

ـ أنا من النرويج.

ـ لا.. لا، خليني من النرويج، تستحي أنت من أصلك؟، أنت عربي من وين؟، من أي بلد عربي؟

ـ أنا من فلسطين!

ـ بايعها!، صار لنا اثنين وأربعين سنة انطعمي فيكم، وانعادي العالم من أجلكم، وبعدين تخوننا آخرتها!

ثم جاء دوري.

كنت أنتظر قسطا لا بأس به من التعنيف والتبكيت. كنت أفكر فقط في نوعيته وحجمه واتجاهه، فقطع علي تفكيري صائحا:

ـ من وين أنت؟

ـ من موريتانيا.

قلتها ثم ألقيت السمع أنتظر، ما هو نوع الشتيمة التي ستوجه إلي، فلا بوعزيزي لدينا ولا نحن فلسطين...، تذكرت في تلك الثواني أن الرئيس الموريتاني الحالي كانت علاقته طيبة بالقذافي، والقوم هنا منمّطون لا يستطيع واحد منهم أن ينبس بما لا يتفق مع النمط العام للسلطة، ألقيت السمع وتجمدت في انتظار الحكم.

وقف عيسى وقال بصوت سريع:

ـ موريتانيا..، أحسن ناس!

قالها وانصرف بسرعة كما دخل.

كانت هذه هي أول تجاربنا في مكاننا الجديد وسط طرابلس. كنا لحظتها لم نتعرف بعدُ على طبائع الحراس، ولا كيف سيعاملوننا فتشاءمنا بناءً على تصرفات عيسى قَعْدُودْ وسلاحه الذي معه.

(١٤)

مشكلة السجين أن طبيعة السجان تلعب دوراً هاماً في صحته النفسية والعقلية، وانسجامه مع عالمه المفروض عليه. فما أصعب أن تحملق صباح مساء في وجوه السجانين المقفلة. إن وجوه بعض السجانين تشعرك وكأنها موصدة، ولا توجد أي نافذة إلى قلوب أصحابها.

حتى إنك قد تفكر أحيانا في بعض السجانين: هل لهذا الإنسان أطفال يمازحهم ويبتسم لهم؟، هل يتسلل الحب إلى قلبه؟، هل هو إنسان طبيعي يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؟، ألا يتأثر لحال هذا الطائر المهيض الجناح المرمي أمامه؟، أم إن دون قلبه أقفالا صدئة تحول دون تسلل نور الرحمة إلى قلوب من يختاره المستبدون لحراسة مساجينهم؟

بعد ساعة من دخولنا للزنزانة، جاء حارسان وعصبا أعيننا وأخذونا إلى زنزانة في نفس الطابق، كانت صورة من الزنزانة التي كنا فيها.

كان الجو باردا جدا، وكانت الأسرة الحديدية عارية. طلبنا من العساكر تزويدنا ببطانيات ووسائد، وكان معظمهم

يجيبوننا بقسوة لافتة. بعد عدة ساعات جاء عيسى يحمل بطانيات ووسائد، ورماها قائلا:

ـ خذوا هذه الأغطية...، تطلبونها كأنكم أتيتم بها من بيوت آبائكم!

كانت حياتنا داخل هذه الزنزانة روتينية جدا.

يأتي الإفطار عادة حوالي التاسعة صباحا، وهو عبارة عن قطعتيْ خبز وجبن وعصير صغير الحجم. أما الغداء فأرز أو معكرونة أو كسكس. والعشاء نسخة مشابهة للغداء، معكرونة في الغالب، وأحيانا يكون أرزاً أو كسكساً.

خلال صباحنا الأول في هذه الزنزانة، أعلنت الجزيرة نبأ اعتقالنا على الشاشة بشكل رسمي، بعد أن تأكد لدى الإدارة أن المفاوضات الصامتة لن تجدي نفعا وحدها. كان قد مر على اعتقالنا أسبوعان كاملان.

وأثناء ليلتنا الأولى في زنزانتنا الجديدة، سمعنا أصوات القصف وطائرات الاستطلاع، لكننا لم نكن نعرف دلالة ذلك ولا ماذا يعني، فكل ما علمناه هو معلومات غامضة تفيد بأن الناتو يقصف ليبيا، وأن الحصار فرض على البلاد بقراريْ مجلس الأمن: ١٩٧١ و١٩٧٣.

مشكلة السجين ـ أو المختطف على الأصح ـ الذي لم يحاكم ولا يعرف مدة سجنه، أنه في حالة ترقب دائم. كنا كلما سمعنا الأبواب تفتح في اتجاه زنزانتنا، خفقت قلوبنا وجلسنا مستعدين لهذا القادم. إنها الصورة نفسها التي أقلقت السجين منذ أبد الآبدين:

إذا حرسيٌّ قعقع البابَ أُرعشت
فرائصُ أقوام وطارت قلوبها
بمنزلة أما اللئيمُ فشامتٌ
بها، وكرامُ الناس بادٍ شُحوبُها [١]

كانت أفضل لحظاتنا ما بعد صلاة العشاء، حيث نهرب من واقعنا والتفكير فيه إلى قصص نسلي بها أنفسنا. فكنت كل ليلة أقول لزميليْ: «فلنتسامرْ!»، معلنين بذلك بداية سهرتنا الليلية.

كنا نقترح كل ليلة فصلا معينا من حياة أحدنا ليتحدث عنه بطريقة تفصيلية، حتى يمكننا أن نعيش الصور والتفاصيل التي كانت تنتشلنا من بين جدران السجن، وعادة ما يستمر السمر حتى منتصف الليل.

كانت قصص عمار أمتع القصص، نظرا للتجارب العجيبة التي شاهدها في حياته.

كنا نسافر معه بعض الأماسي وهو يخرج من بغداد ـ التي ولد فيها ـ خائفاً يترقب، باحثاً عن حلم غامض. فقد تنكر له العراق بعد الاحتلال الأمريكي، رغم ولادته على أديمه. كنا نصحبه وهو يركب ثبجَ البحرِ متسللا من جزيرة إندونيسية محاولا الهجرة إلى أستراليا.

فقد أبحر عمار يوم ٢٨ من أغسطس عام ٢٠٠١ ـ مع عشرات العراقيين والفلسطينيين ـ من جزيرة لومبوك ماخراً

---

(١) الأبيات لأحد لصوص العرب قديماً، واسمه السمهري بن بشر.

عباب المحيط الهادئ، ومع انبلاج فجر الرابع من سبتمبر تحطم زورقهم فوجدوا أنفسهم في عرض المحيط تتقاذفهم الأمواج.

عندما يبدأ عمار في سرد هذه المأساة تحس بأن الصور حية في ذهنه كأنه يعيش تفاصيلها من جديد. فمن الصور التي لا ينساها، أنه سبح عدة ساعات وكانت سيدة عراقية تمسك بمنكبه ومعها بنتاها الصغيرتان، وبعد أن طال الليل نامت صغراهما على كتفه، لكنها تدحرجت فجأة من على منكبه وابتلعتها المياه، دون أن يكون أمامه أو أمام أمها غير الدموع المكبوتة وسط ظلام المحيط.

ثم تنتهي القصة نهاية سعيدة بمجيء سفينة عسكرية نرويجية تنقذ عمارا ومن بقي معه على قيد الحياة.

أما لطفي فكان يحدثنا عن طفولته في مسقط رأسه ببلدة العلاء. تلك البلدة المتاخمة لمدينة القيروان التاريخية في تونس.

كنا نسافر بخيالنا مع لطفي لنراه طفلاً صغيراً يسير في حارات العلاء، مواصلا دراسته الابتدائية فالثانوية. ثم بعد ذلك نعيش معه أحلامه وهو ينتقل إلى العاصمة التونسية لدراسة الإعلام في معهد الصحافة.

ولعل من الجُمل التي حفظناها من لطفي خلال أيامنا الأولى جملة علقتْ بذهنه من أيام تدريبه في كلية الإعلام. كان لطفي كلما خيم الهدوء على الزنزانة يقول بصوت غليظ مستعيداً صوتَه وهو طالبٌ يحاول لعب دور المذيع الجاد:

ـ طائر اللقلق البولندي! إنه يعيش في أوروبا ويهاجر صيفا إلى كندا.

بروفيسور جون ليكرز من جامعة مونتريال يتحدث في الموضوع: «This bird is. .» إن هذا الطائر. . .

ونضحك ملء أفواهنا، مبدّدين صمت الزنزانة المروّع.

أما أنا فكنت أحدثهم عن طفولتي في الريف الموريتاني، وعن غرائب العادات الاجتماعية عندنا، إلا أنهم رووْا عني آخر بيتين حفظتهما في الزنزانة الانفرادية من كتاب الأدب الأندلسي:

أدنتْ إليّ صَباباتي مغردةٌ
أذكَى الجوَى بين أضلاعِي ترنمُها
كأنما مكثتْ في عشِّها زمناً
عُليةٌ بنتُ زريابِ تعلّمُها

ثم أتبعهما عادة بلازمتي التي تعودا على سماعها مني منذ أيام بن قردان، وهي عبارة أرددها بنبرة خاصة كلما اشتكى أحدهما من أمر:

هوّن عليك لم يضع شيء..

وأصلا لم يكن شيء لديك!

هوّن عليك![٢]

---

(٢) من أبيات للشاعر العراقي أحمد مطر.

استطعت خلال نقلنا من الزنزانة الانفرادية أن آتي معي بكتابيّ اللذين حصلت عليهما هناك، فدفعتهما إلى زميليّ، فقرأ لطفي كتاب «الأدب الأندلسي»، وأصبح الحديث بيني وبينه شبه يومي عن تفاصيل ما قرأه عن ابن حزم، ومروان الطليق، وقرطبة في عصر سيادتها.

أصبح قسط لا بأس به من حديثنا منصباً على تحليل وضعيتنا، والتفكير في المآلات التي تنتظرنا. كانت عدة أسئلة معينة تسيطر على تفكيرنا معظم الوقت.

هل سنذهب ضحية لحظة السقوط كما حصل في النموذج العراقي؟، أم أن الحراس الذين معنا سيسلموننا بأمن وأمان لجهات مسؤولة؟، هل سيدخل الثوار ليسيطروا على المكان فيروننا هنا ويخلصوننا من الأسر؟، أم أن معركة طاحنة ستدور في جنبات هذا المكان قد نسلم منها وقد يبيدنا الرصاص الطائش؟

كانت أسئلة مجنونة كثيرة تدور، نفكر في بعضها بدافع الواقعية، وفي بعضها بدافع الخوف، وفي بعضها بسبب الفراغ القاتل، وهروب الطبيعة الذهنية من الفراغ.

خلال هذه الليالي كنا نسمع إطلاق نار متقطعاً يشق هدوء المنطقة المحيطة بمكان احتجازنا، مما يشي بأن جيوب مقاومة ضعيفة تظهر بين الفينة والأخرى في طرابلس. لكن كانت لافتة ـ كذلك ـ دقة عمل الحراس وانتظام عملهم ودوامهم.

فهِمْنا ـ ونحن نتأمل في انتظام عمل القسم الأمني من نظام القذافي ـ لماذا ينفق الرجل على أمنه في سنة واحدة

١١٠٠ مليون دولار أمريكي، حسب معهد ستوكهولم لدراسات السلام[٣].

فمائة ألف جندي التي كان القذافي يقول إنها عدد جنوده الرسميين، والدبابات الـ٨٠٠ التي تقبع ـ حسب النظام الليبي ـ في مخازنه العسكرية المهترئة، لم تُدّخَر ـ مع غيرها من أجهزة المخابرات ـ إلا لإطالة حكمه والتمهيد لتولي ذرارِيهِ الحكم من بعده.

---

(٣) <http://milexdata.sipri.org/result.php4>.

(١٥)

في أحد الصباحات الكئيبة داخل هذه الزنزانة المختبئة في حنايا طرابلس، جاء أحد الحراس ووقف عند الباب، وقال ساخرا:

ـ من قلب الحدث...!، الجزيرة في قلب الحدث!.

ثم رمى لي قطعا من الخبز والجبن، قائلا بصوت مزهو:

ـ شوف...، انطعميكم وانتُ كنتُ تكذبو، وتشوهو البلاد!.

لم أجب الرجل، أخذت الطعام وعدت إلى سريري، ثم بدأت أسئلة كبرى تدور في ذهني: ما الذي ربط مصيري بمصير الجزيرة؟، ولماذا أنا هنا؟، ثم ما الذي جعلني أختار مهنة الصحافة حتى يتطاول علي هذا الأبله؟

كيف بدأ ذلك؟، وما تقييمي لمسيرتي المهنية؟، وماذا أنا فاعل لو استقبلت من أمري ما استدبرت؟

اضطجعت في الركن الأيسر من الزنزانة، متلفعاً ببطانيتي

تاركاً ذهني يسير حراً طائفاً في بدايات القصص التي أوصلتني إلى هذا المكان.

* * *

كانت البداية حلما مبهما فيه التوق إلى التموقع في مكان يمكنني منه أن أساعد أمتي على تعلم أبجديات التحرر والثورة على المستبدين.

كان فيه كذلك توق داخلي للحصول على وظيفة مستقرة، تمكنني من تحقيق مجموعة من الأحلام، بعضها ذاتي النفع وبعضها عامه، إلا أن الجانب المادي البحت كان آخر ما أفكر فيه.

بدأ كل شيء في إحدى صباحات الدوحة القائظة.

كانت الجزيرة قد أعلنت عبر موقعها على الإنترنت رغبتها في اكتتاب خمسة صحافيين، فاتصلت بالإدارة معربا عن رغبتي في التقدم للاختبار، وبعد فترة حدد موعد للامتحان.

دلفت إلى مكتب المدير العام لشبكة الجزيرة فمد إليّ مدير مكتبه منير الدايمي رزنامة من الأوراق، وأشار إلى مكتب أنيق خال ـ إلا مني ومن سيدة لبنانية جاءت هي الأخرى للاختبار ـ طالبا منا إعادة الأوراق خلال ساعتين بالتمام والكمال.

كانت الأوراق عبارة عن امتحان كتابي للالتحاق بقناة الجزيرة صحافياً في غرفة الأخبار. دلفت إلى الغرفة ووضعت الأوراق أمامي، وبدأت بعد أن بسملت.

الأسئلة عبارة عن مجموعة من الأخبار المكتوبة باللغة الإنكليزية، وعليّ أن أترجمها ترجمة تحريرية. ثم أوراق فيها مقال مكتوب بالعربية عليّ أن أصحح الأخطاء الواردة فيه، وهي أخطاء نحوية في معظمها. ثم مجموعة من الأسئلة يتعلق بعضها بالثقافة العامة، وبعضها الآخر امتحان لفهم الممتحَن لتراتبية الأخبار وأهميتها، وحسه الصحافي.

قبل أقل من دقيقتين تقريباً على نهاية الساعتين أعدت الأوراق إلى منير.

كنت يومها أعمل في جريدة **العرب** القطرية.

مرت أسابيع فإذا بشخص من إدارة الجزيرة يهاتفني، جاءني صوته:

- لقد تجاوزت الامتحان الكتابي بنجاح، وبقيت أمامك مقابلة شفهية نتمنى أن تأتي الأربعاء المقبل لإجرائها. الموعد: العاشرة صباحا في مكتب المدير العام.

وجدتني - في الموعد - عند باب المدير العام للشبكة أنتظر. كان يجلس قرب الباب الذي سأدخل منه شاب متوسط القامة قمحي اللون باسم القسمات.

بادرني قائلاً بالدارجة الموريتانية:

- أيش طاري فيك؟

- بخير والحمد لله، أيش حالك أنت؟

- بخير..

ثم استرسل بلهجته الجزائرية قائلاً:

ـ أنا إسماعيل مليلي...، أهلا بك. عليك الانتظار عدة دقائق، ثم سأدعوك إلى الدخول للمقابلة.

أثناء حديثي مع إسماعيل، خرجت من داخل الغرفة التي تجلس فيها لجنة المقابلة فتاة كأنها الدنيا المقبلة. كانت شابة ممشوقة القد، عسلية العينين، يجري ماء الحياة في أطرافها كأنه نهر من أنهار الخلود...

نظرتُ إليها فقلت في نفسي ضاحكاً: «إذا كان من معايير اللجنة ما تمتع به هذه الفتاة، إني إذنْ لمن الخاسرين!».

بادرني إسماعيل ـ وكأنه أحس بالالتفاتة التي عنّتْ مني وما يدور في رأسي ـ باسماً قائلاً:

ـ تفضل يا أخي، هم في انتظارك.

دلفت إلى الداخل، كانت غرفة واسعة يجلس وسطها مقابلي المدير العام وضاح خنفر. بينما يجلس عن يمينه رئيس التحرير ـ حينها ـ أحمد الشيخ، ثم مدير البرامج عارف حجاوي، بينما يتربع عن يساره نائب رئيس التحرير ـ يومها ـ أيمن جاب الله، وآخران لا أتذكر اسميْهما.

كان ذلك في شهر مايو ٢٠٠٨.

كانت تلك أول مرة أرى فيها هذه المجموعة رأي العين، بادرني وضاح خنفر باسماً سائلاً:

ـ أيهما سيفوز: أوباما أم جون مكين[١]؟

---

(١) كان ذلك أثناء اشتداد الحملة الرئاسية للانتخابات الأمريكية عام ٢٠٠٨، =

ـ سيفوز مكين، فرغم أن الذهنية الأمريكية مهيأة أكثر للتعلق بشخصية أوباما، نظرا لتجسيدها لفلسفة «الحلم الأمريكي»، إذ هو الشاب القادم من قاع المجتمع ـ نظرياً ـ وابن المهاجر الذي قارع حتى تخرج من جامعة هارفارد وحفر لنفسه موقعا، مخترقا النخبة السياسية الأنغلوسكسونية، فإن نتيجة سبع سنوات من التخويف والتهييج ودق طبول الحرب ستتوج بانتخاب ماكين، اليميني والجندي وأسير الحرب السابق.

كانت إجابتي على هذا المنوال، فرأيت أثرها في عيون أعضاء اللجنة.

ثم تبعتها أسئلة تحليلية أخرى عن تركيا وحزب العدالة والتنمية المهدد بالحل دستوريا يومها، ومآلاته في حالة حله. ثم بعد أخذ ورد فاجأني أحمد الشيخ سائلا:

ـ أنت موريتاني، ولا بد أن تكون من عشاق الشعر، فمن هو شاعرك المفضل؟

ـ المتنبي!.

فتململ الشيخ الجالس عن يساري ـ مدير البرامج عارف حجاوي ـ في مقعده كأنما أحس بأن بيته قد ولجه متطفل دون إذن منه، فقال بصوته الجهوري الصافي:

ـ لماذا المتنبي؟، كلكم ـ أيام الناس هذه ـ تفضلون المتنبي.

= وكان السباق على أشدّه بين مرشح الحزب الجمهوري جون مكين ومرشح الحزب الديمقراطي باراك أوباما.

ـ لأنه الشاعر الذي أجد في تضاعيف ديوانه بغيتي، أجد العربي الثائر المفعم عنفوانا وشططا، وأنا الذي أعيش في زمن مات فيه العنفوان وانطفأت فيه «النار المقدسة» التي كانت تتقد يَدَ الدهرِ في صدر كل عربي، يعجبني «قلق الشعر ونشيد الدهر»[٢] الثاوي في كل بيت من شعره...، أولم تسمعه في رحلته الأبدية مرتلا في مسامع الكون:

على قلق كأن الريح تحتي   أوجهها يمينا أوشمالا

هذا القلق هو ما يشدني إليه، إذ أحس أن شباب العرب السالي في مقاهيه، المشدوه أمام شاشاته، المعرض عن المساهمة في صناعة الحياة، أشد ما يكون حاجة إلى هذا النفس، تعجبني همته حين يقول:

يقولون لي: ما أنت في كل بلدة؟
وما تبتغي؟ ما أبتغي جلّ أن يُسمى!

واسترسلت على هذه الجديلة.

أثناء الأخذ والرد لاحظت أن وضاح خنفر استخفّه الطرب وأنا أقرأ بعض شعر أبي الطيب.

فالرجل رغم دراسته الهندسة الجامدة والفلسفة الجافة فإنه يحب الأدب ويهيم بالكلمة الأخاذة.

أثناء ذلك جاءني صوت أيمن جاب الله عن يميني متحدثاً باللهجة المصرية:

---

(٢) جزء من عنوان: مبروك المناعي، **أبو الطيب المتنبي قلق الشعر ونشيد الدهر** ([د. م.]: دار اليمامة، ١٩٩٢).

ـ بس..، يا ريّس.. المتنبي منافق!

ـ أحمد بن الحسين ليس منافقا! المتنبي يقسّم القصيدة عادة إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول يمدح فيه نفسه... المتنبي الأمير. والثاني يتغنى فيه بمحاسن محبوبته، أما الثالث فـ«ياكل منُّ عيشْ».. ـ كما تقولون باللهجة ـ أي أن هذه وظيفته التي تضطره لها الحياة النكدة لكي يعيش. لكنه يفعل ذلك وهو كاره، وقد قال:

وشعر مدحتُ به الكركدن   بين القريض وبين الرُّقى
فما كان ذلك مدحا له   ولكنه كان هجوَ الورى!

فاضطرار المتنبي إلى مدح الناس هجاءٌ مقذعٌ للبشرية لا له، فهم الذين لم يوفروا له بيئة يحصّل فيها رغيفا يغنيه عن مدح اللئام.

وسار الحديث على هذه الشاكلة...

ثم بادر أحمد الشيخ سائلا بلغة إنكليزية صقيلة:

ـ ماذا درست في الجامعة؟

ـ أحمل شهادة البكالوريوس في الأدب العربي.

ـ لكن أين تعلمت الإنكليزية.

ـ في الولايات المتحدة.

بعد قليل وجدتني واقفا أودع الممتحنين، وسمعت المدير العام يخاطبني ممازحا:

ـ أنت بهذه القدرات يمكن أن تكون أفضل صحافي في الشرق الأوسط.

شكرتهم وانصرفت.

بعد أيام أشعرتني إدارة الجزيرة برغبة اللجنة في التحاقي بالعمل في القناة. لكن مشاكل إدارية وبيروقراطية متعلقة بقانون العمل في قطر جعلت التحاقي بالعمل داخل المحطة أمرا صعبا، وذلك لتشبث جريدة العرب بعمالها وحقها في احتكارهم ما دامت هي من جاءت بهم إلى قطر.

في لحظة التفكير الأولى برز أمامي حل سحري.

لماذا لا أطلب أن أكون مراسلا في جنوب إفريقيا، فمنذ قرأت مذكرات الزعيم الجنوب إفريقي نيلسون مانديلا وأنا أمني النفس بزيارة تلك البلاد، والاطلاع على تجربتها الفريدة.

استشرت بعض الخلّص، وعقدت العزم، فجلست وكتبت الرسالة التالية، وأرسلتها إلى مكتب المدير العام لشبكة الجزيرة:

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد وضاح خنفر المدير العام لشبكة الجزيرة الفضائية..
.. المحترم

تحية طيبة وبعد:

فقد سعدت بمقابلتكم ومعاونيكم الكرام، وهنأت نفسي على ما أوليتموني من عناية وسررت لقبولكم المبدئي لي في مؤسستكم العامرة، وهو وسام أرفعه على صدري.

وقد كنت أمني النفس بالعمل مع الجزيرة مراسلا من

مناطق أجد فيها رغبة الاستكشاف، والتعرف على جزئيات الحياة العامة لتشكيل الصورة النهائية.

وحسبما أتذكر فإنه ليس لدى القناة الآن مراسل في جنوب إفريقيا والمنطقة القريبة منها، لذلك فإني أعبر عن رغبتي في العمل مع الجزيرة من تلك الربوع (جنوب أفريقيا وزمبابوي وموزمبيق وأنغولا... إلخ)، وذلك بناءً على المعطيات التالية:

١ ـ أعتقد أن جنوب إفريقيا دولة تختزل قصة الإنسان الإفريقي، بما فيها من أفراح وأتراح وقوة وضعف. فعلى أرضها مُورست أسوأ نماذج التمييز العنصري الذي تعاني منه مناطق أخرى من القارة، كما أن تجربتها في التعالي على تلك القصة وكفكفة جراحها أيضا، تعتبر من أكثر قصص القارة السمراء نجاحا في هذا المجال، وأعتقد أن تسليط الضوء على هذه الجوانب يستحق التضحية والتغطية .

٢ ـ الحراك الاجتماعي في جنوب إفريقيا (وضع البيض بعد إنهاء الفصل العنصري، التمايز بين البيض، التشكيلات القبلية والعرقية للزنج، الهنود في جنوب أفريقيا، أوضاع المهاجرين الأفارقة خصوصا في ضوء الأحداث الأخيرة) كلها عناوين لعمل مميز.

وبذا تختزل جنوب إفريقيا قصة علاقة الإنسان الإفريقي (وإنسان البلاد النامية عموما) برواد «الحضارة البيضاء» ورسل الشمال. فمنذ وطئت أقدام الهولنديين (عام ١٦٥٢) تلك الأرض، والصراع دائر بين ثنائيات من قبيل الاحتلال والاستقلال، وقوة الحق وحق القوة، والأسود والأبيض. وأعتقد أن مثل هذه الثنائيات تهمنا كثيرا كصحافيين عرب، ما زلنا

نعيش في بعض أوطاننا أوضاعا مشابهة تتطلب منا الاطلاع على تجارب الغير في هذا المجال. وهو ما سنسعى لنقله إلى مشاهد الجزيرة.

٣ ـ الدور السياسي لجنوب إفريقيا في القارة المفتقرة إلى زعامة فعلية، فالبلد بسكانه واقتصاده الأول في المنطقة وتاريخه النضالي يلعب ـ ويمكن أن يفعل ذلك مستقبلا ـ دورا مهما في الدبلوماسية الدولية وتلك القارية، لذا نجد جنوب أفريقيا حاضرة في أغلب الوساطات ومتدخلة في أغلب الأحداث.

٤ ـ قضايا الاقتصاد والعمال في عملاق القارة الاقتصادي، بلد مناجم الذهب وقضايا البيئة والسياحة مواضيع يجب أن ترى على الشاشة مرتبطة بقصص إنسانية.

٥ ـ هناك عامل شخصي أخير يجعلني أحب العمل في هذه المنطقة من قارة إفريقيا. ذلك العامل هو حب الاستكشاف.

إن ما توفرت عليه من معرفة بأحوال شمال وغرب القارة سيكون رافدا لمعرفة جنوبها وشرقها، وسيكون عونا لي على قراءة الأحداث، كما أن بعدي عن الأحداث في المنطقة من قبل يجعلني مدفوعا لمعرفة أحوالها وسبر أغوارها.

آمل أن تشرفوني بقبول مقترحي هذا، وفي انتظار ردكم الكريم تقبلوا فائق الشكر والتقدير.

أحمد فال ولد الدين

١٠/ يونيو/ ٢٠٠٨

بعد ذلك بشهرين، وفي ٣١ من أغسطس ـ ساعات قبل أول أيام الربيع في جنوب إفريقيا ـ من عام ٢٠٠٨ هبطت في مطار جوهانزبيرغ، لأجد نفسي على أديم بلاد مانديلا.

هبطتُ جنوب إفريقيا وأنا مصاب بفايروس قديم اسمه عشق الحرية وكره الاستبداد. تسلل ذلك الفايروس إلى نفسي من الصحراء الممتدة التي ولدت وتربيت في فضائها المنبسط. فنما بين جوانحي واشتد عوده بما كنت أقرأه من أشعار صعاليك الجاهلية، وما رأيته في الولايات المتحدة، والتقى كل ذلك مع عذابات سود جنوب إفريقيا وعرق العاملين في مناجم الذهب ما بين كمبرلي وجوهانزبيرغ.

كانت خلطة من ديناميت الحرية هي التي رمتني في هذا الركن...، داخل هذه الزنزانة...، أسيرا في أيدي كتائب القذافي. لكنها خلطة سحرية رائعة أنا بها سعيد. يكفيني شرفا أني حاولت أن أساهم في ميلاد أمتي من جديد.

(١٦)

الساعة المثبتة في الجانب الأيمن من مكتبه الأنيق تشير إلى ١٣:٠٠ ظهرا بتوقيت الدوحة. نظر إلى الساعة ـ وهو يداعب نظارتيه ـ فتذكر أن لديه اجتماعا مع خلية الأزمة التي شكلتها القناة لمتابعة أخبار الفريق المحتجز في ليبيا. وقف ودار يسارا في اتجاه باب مكتبه، فرن الهاتف الأسود المثبت بأناقة قرب جهاز الكمبيوتر المتربع على مكتبه.

التفت فرأى شاشة الهاتف موحية بأن المتصل هو محمد داود.

ـ كيف حالك يا سيدي، قالها منير الدايمي ـ مدير مكتب المدير العام لشبكة الجزيرة ـ بنبرة هادئة كالعادة.

ـ بخير والحمد لله، رد أبو خالد.

ـ ماذا عندكم، يا سيدي؟

ـ صحيح، بدّي أسألك، عن آخر تطورات ملف الشباب، قالها أبو خالد بلهجة فلسطينية فيها نبرة من لهجات أهل جزيرة العرب.

ـ قمنا بكل ما يمكنك أن تتخيله، لم تبق جهة عالمية يمكن

أن تساهم في حل القضية إلا اتصلنا بها، ونحن متفائلون. آخر من تحدثنا إليه هو وزير الخارجية التركي الذي تحدث بدوره مع الليبيين ووعدوه بأن الإفراج سيكون خلال ثمان وأربعين ساعة، لكن المهلة انتهت.

أخبرتك من قبل باتصالاتنا مع فنزويلا والبرازيل والنرويج وموريتانيا وتونس والصين وجنوب إفريقيا والأمم المتحدة، وكثير من الشخصيات الدولية التي نتوقع أن يكون لتدخلها أهمية لدى النظام الليبي.

ثم إن خلية الأزمة التي شكلت لمتابعة القضية تواصل اجتماعاتها يوميا، وأنا الآن في طريقي إلى أحد اجتماعاتها.

رغم أن منير الدايمي ينحدر من الجنوب التونسي، فإن هدوءه اللافت يذكرك بهدوء الإنكليز الذين عاش بين ظهرانيهم زمنا طويلا، فأنت لا تتحدث معه تحت أي ظرف إلا ونقل إليك شحنة الاطمئنان الذي يطبع سلوكه ونظراته.

بعد ساعات..، جلس منير على مقعده داخل مكتبه، ثم فتح بريده الإلكتروني وضغط زرا فوصلت الرسالة التالية إلى كل عمال شبكة الجزيرة:

الزملاء الأعزاء،

عطفا على خطاب السيد المدير العام لشبكة الجزيرة بخصوص الزملاء المعتقلين في ليبيا، وحرصا على توحيد الجهود وتكثيفها وتوجيهها للوصول إلى إفراج قريب عن زملائنا، فقد تم تشكيل خلية أزمة مركزية على مستوى الشبكة،

ولجنة مصغرة على مستوى القناة معنية أساسا بموضوع الزملاء الأربعة.

بدأت اللجنة المصغرة اجتماعاتها اليومية منذ مدة، وحددت المهام الرئيسية التالية:

- العائلات: يشرف الزميل معتصم أبو داري على تنظيم الاتصال بالعائلات، وإبلاغهم بالتطورات، والتأكد من اطلاعهم على أي خبر يتعلق بالزملاء قبل نشره.

- الاتصالات الدبلوماسية: هناك اتصالات دبلوماسية عديدة يشرف مكتب المدير العام على تنظيمها. ولن تدخر الشبكة وسعها في استعمال علاقاتها المتميّزة مع كل الجهات التي يمكن أن تؤثّر على السلطات الليبية من أجل الإفراج عن الزملاء .

- المنظمات غير الحكومية: يدير قسم الحريات العامة (الزميلان سامي الحاج وحسن المجمر طه) حملة مكثفة للتعريف بقضية الزملاء، لدى أهم المنظمات الحقوقية والدولية. وواحد من أهم أهداف الحملة التأكد أولا من سلامة الزملاء والسماح بزيارتهم، والضغط للإفراج عنهم .

- الإعلام: بالنسبة لما يبثّ على شاشة قناة الجزيرة، فإن الزميل معتصم أبو داري هو نقطة التواصل الرئيسية. أما القناة الإنجليزية فإن الزملاء هناك مستعدون للتفاعل مع أي حملة سنرتبها. ومن جانب آخر فإن إدارة العلاقات الدولية والإعلام بقيادة الزميل ساتنام ماثارو تعد لحملة إعلامية دولية ستنطلق قريبا للمطالبة بإطلاق سراح الزملاء.

ـ التواصل الداخلي: سيقوم الزميل غسان أبو حسين رئيس قسم التواصل الداخلي خلال الأيام القادمة بتدشين حملة للتضامن مع الزملاء من خلال أنشطة مختلفة. وللزملاء الراغبين في اقتراح أنشطة التواصل مع الزميل غسان مباشرة .

الأخبار التي رشحت حتى الآن عن الزملاء شحيحة جدا. ولكن مجرّد اعتراف النظام الليبي لمنظمات وشخصيات دولية بوجودهم لديه يعتبر خبرا جيّدا. حيث إن هذا يمنع إلحاق الأذى بهم، ويجعل إطلاق سراحهم مسألة وقت. كما أن شهادات بعض من أطلق سراحه مؤخرا تؤكد سلامتهم الجسدية والنفسية.

ختاما، لا شكّ أن جميع الزملاء يرغبون بل ويجتهدون ـ كل بطريقته ـ لإطلاق سراح الزملاء من خلال مبادرات عديدة. ولكن نظرا لحساسية الوضع وتعلقه بالسلامة الشخصية للزملاء الأربعة، ولغيرهم من زملائنا المنتشرين في المناطق الساخنة، فإننا نرجو من الجميع التنسيق الكامل مع خلية الأزمة المشكلة، وعدم الإسراع إلى نشر أي أخبار تردهم أو التواصل مع أي جهات، إلاّ بعد الاتفاق مع مكتب المدير العام أو الأشخاص المكلفين بالمتابعة، كما هو موضح أعلاه.

دعاؤنا أن يُطلق سراح زملائنا قريبا..

ولكم التحية والتقدير.

مكتب المدير العام

(١٧)

في إحدى الليالي كنا جالسين بُعيد صلاة المغرب نتحدث. كنا لحد تلك اللحظة لا نعرف ما الذي يدور في العالم الخارجي. هل علمت الجزيرة بأننا على قيد الحياة؟، هل قيل لهم إننا أعدمنا؟، ماذا قيل لأهلينا؟، ما المسار الذي اتخذته الجزيرة في التعامل مع النظام الليبي؟

فجأة سمعنا خطواته المميزة تقترب، حقا إنه صديقنا.. الحارس عيسى.

دخل وجلس كعادته وبدأنا نسأل، كان يرتدي معطفه الأسود وبيده كومة مفاتيح. دخل ووقف قرب سريري قائلا:

ـ كيف الحال؟

قالها وهو يفتح قارورة ماء.

نحن عادة ننتهز فرصة دخول عيسى علينا باعتباره قادما من الدنيا، لنهجم عليه بأسئلة يجيب عن بعضها ويعرض عن بعض. أدخل يده اليمنى في جيبه وأخرج هاتفه، ثم أدخل يده اليسرى في جيبه الأيسر وأخرج شريحة، نزع شريحة هاتفه ودس أخرى مكانها.

كانت لحظة مفصلية، كنا ثلاثتنا ننظر إلى الرجل مشدوهين منتظرين ماذا يريد أن يفعل.

بدأت أفكر.. هل سيسمح لنا بالاتصال؟ هل ذاك ممكن؟

قال عيسى بصوت خافت:

ـ يمكن لواحد منكم أن يتصل ليطمئن أهليكم بأنكم بخير.

في لحظات اتفق زميلاي على أن أكون المتصل.

كانت لحظات كثيفة، فهذه أول فرصة ليصل صوت من العالم الآخر إلى أهلينا وإلى الجزيرة، هذا أول اتصال من الآخرة بالدنيا، اتصال من أقبية كتائب القذافي.

كنا ثلاثتنا ننظر إلى جهاز نوكيا الصغير الذي يمسكه عيسى بيده، وكأنه خيط إنقاذ يقترب من كف غريق في ليلة ظلماء وسط بحر لجيّ.

تحول ذلك الجهاز الصغير ـ الذي كنا نشتكي من رنينه ووجوده أصلا ـ أمام عيوننا إلى أملنا الوحيد في النجاة، ما أقرب الدنيا من الآخرة!

أمسكت الهاتف وقلت لعيسى:

ـ أنا سأتصل على أخي في قطر.

ـ قطر! تريد أن تدخلنا المتاهات يا أحمد، إن كل رقم يتصل على قطر يُرصَدُ، وقد يتعرض صاحبه للمساءلة، لماذا لا تتصل بموريتانيا؟

ـ لأن أخي يعيش في قطر، وهو كبير عائلتي، ومن الأفضل أن أتصل به حتى يُبلغ بقية العائلة.

ضرب الرجل أخماسا بأسداس برهة...، ثم قال بصوت خافت وهو يتفقد باب الزنزانة:

- الله يستر يا أحمد، قالها بلهجة مرتعشة كاشفة عن أن صاحبها قد عزم على خطوة صعبة، ثم سلمني الهاتف فوضعت الرقم وضغطت زر الإرسال!

في هذه اللحظة كانت رائحة الشاي الأخضر العبقة تفوح داخل بيت هادئ قرب جسر الجيدة في العاصمة القطرية. داخل هذا البيت، يتربع رجل أربعيني، أسمر السحنة، طلق المحيّا، تشي قسمات وجهه ونظرات عينيه بأن الدنيا ما زال فيها شيء من الحكمة والعقل.

كان محمد المختار بن الخليل يداعب كؤوس الشاي الأخضر التي بين يديه كما يداعب الجد الحنون أحفاده، يقرب كأسا ليُترِعَه شاياً، بينما يبعد آخر حارما إياه تحبّباً من رغوة الشاي الأخضر الذي اشتهر قومه الشناقطة بحبه.

بين يدي «أبي إبراهيم» - كما يحلو لزملائه في الجزيرة مناداته - تراصت أربع كؤوس تكاد رغوة الشاي الموريتاني تخرج من عنق كل منها، هي لوحة طالما أعجبت القوم.

كان بن الخليل قد عاد من مكتبه منهكَ القوى بعد يوم طويل مليء بالتعقيدات الإدارية والتحريرية، لذلك تمُثل جلسة الشاي هذه بالنسبة له ضربا من خلع العِذار، والتخفف من زكانة الإدارة، وركانة المسؤوليات الاجتماعية، هي نمط من الهروب إلى النفس والخلود إلى الفكر أدمن عليها مدير التحرير في موقع الجزيرة نت، حتى إنك عندما تراه منشغلا

بتفاصيل الشاي الذي يصنعه على عينيه تنسى أنه يدير أهم موقع إلكتروني عربي على الإطلاق.

كان يمسك بيده اليسرى كتاب «خزانة الأدب» للبغدادي، بينما تنشغل يمناه بتفاصيل شايِه المعتّق.

فجأة، وصل رنينُ هاتفِ «بلاك بيري» الأسود المرميّ على الوسادة بجانبه إلى سمعه، بينما كان غارقا في التفكير فيما يقرؤه.

اصّاعدتْ رنة الهاتف فقال في نفسه: شنشنة أعرفها منك!، لا أفكر في ممتع إلا رننتَ كأنك نافخ صور أو منذر حرب!.

قرّب المحمول فرأى الرقم المتصل من ليبيا..

تسارعت دقات قلبه، وفي ثوان قليلة ضج ذهنه بأسئلة من قبيل:

- ماذا وراء هذا الاتصال؟، هل سيكون أحمد فال على الطرف الآخر، أم إن رجل مخابرات ليبياً يحترف حرق الأعصاب قد همّ بأمر سوء؟، هل هي بداية لسلسلة من المفاوضات؟، أم هو خبر يملأ الجوانح سرورا بالسلامة وقرب الفرج؟، أم أن الأسوأ الذي توقعه كثيرون من نظام يصعب التكهن بتصرفاته قد وقع؟

ضغط محمد المختار على الزر الأخضر، وقال بنبرته الهادئة:

- آلو..

في هذه اللحظة اختطف عيسى الهاتف من يدي.

أخذه ووضعه على أذنه مخاطبا محمد المختار:

ـ آلو..، هذا أخوك يتكلم معاك.. خذه!، ثم أعاد الهاتف إليّ.

ـ مولانا، نحن بخير وأمورنا على ما يرام، الليبيون في طرابلس يكرمون وفادتنا ولا داعي للقلق.

ثم سحب عيسى الهاتف، وانتهى الحلم.

استغرقت المكالمة أقل من ٣٠ ثانية، وربما كلفت الرجل أقل من دولار..، لكنها أوصلت أول رسالة أخرى مؤكدة أن فريق الجزيرة ـ الذي اعتقل قبل ثلاثة أسابيع ـ ما زال على قيد الحياة.

خلال دقائق كانت قلوب في موريتانيا وتونس وسوريا وقطر تخفق حبوراً بخبر الاتصال، إنهم أحياء يرزقون.

(١٨)

أثناء أيامنا الطويلة في السجن، وخلال لحظات الصمت التي تمر بنا، كانت خواطر كثيرة تقتحم عليّ سجني. كانت أفكار عجيبة تمرّ بخاطري مذكرة إياي بضعف الإنسان، وبوارف النعم التي يرفل فيها دون أن يؤدي شكرها.

فقد أصبح الدخول إلى مكتبة أو قهوة عامة أو قراءة كتاب أو المشْيُ في الشارع أمنية تداعب الخيال، كنت ألتفت إلى زميليّ مداعبا ومتمنيا:

ـ أنتما مدعوان إلى قهوة عند دوار الرياضة وسط الدوحة.

ثم تكاد النفوس تسيل حسرات!

إن طول الجلوس بين جدران السجن الصدئة، وإدمان النظر إلى وجوه السجانين العابسة المكفهرّة يجعل السجين يتساءل أحيانا في نفسه: هل ما زال في الدنيا حب وهجر ووصال وعراك على توافه الأمور؟، هل هناك أعراس وأفراح وأمان غير أماني الحرية؟، هل في الدنيا أب يعود في المساء حرا طليقا ليدق باب بيته فيتراكض أطفاله إلى الباب هاتفين: بابا.. بابا!

أما زال البدر يطل على الدنيا باسما، براقا مؤْذناً ببداية ليل يتهامس فيه العشاق ويرق فيه النسيم العليل؟، أم إن البدر استقال ولبس السواد واختفى في الأفق مُرخيا طيلسانا أسود على وجهه حدادا على الإنسانية المهدورة؟

أما زالت في الدنيا قلوب مطمئنة لم تر السجن ولا السجان، ولم تسمع قط خرط مزاليج أبواب الزنازين؟

أم إن الدنيا تلبدت بالحزن وتقلصت وانحسرت، وتحولت إلى أربعة جدران سميكة، وباب حديد أسود، وأصوات سجانين!

هل ما زالت هناك رواب ممتدة يحار الناظر إليها؟، هل سُيّجَتْ الرمال الممتدة وسط موريتانيا؟، أم ما زال الرعاة يجوبونها سائرين على ضوء القمر مهتدين بالنجوم لا يروعهم شيء؟

كان عقلي يجزم لي بأن الدنيا هي هي، كما عهدناها حلوة خضرة..، لكنها للحر فقط. أما أنا فدنياي هي هذه..، شئت أم أبيت.

كأن الفتى لم يعرَ يوما إذا اكتسى
ولم يك صعلوكا إذا ما تموّلا[1]

كنت أستيقظ من عالمي فأضحك في نفسي قائلا: مشكلتي الوحيدة هي أني حاولت وزملائي أن نروي نسخة مغايرة من التاريخ لهذه المنطقة لا يوقعها رجل اسمه: معمر القذافي.

---

(١) نسبه أبو تمام في حماسته لجابر بن ثعلبة الطائي.

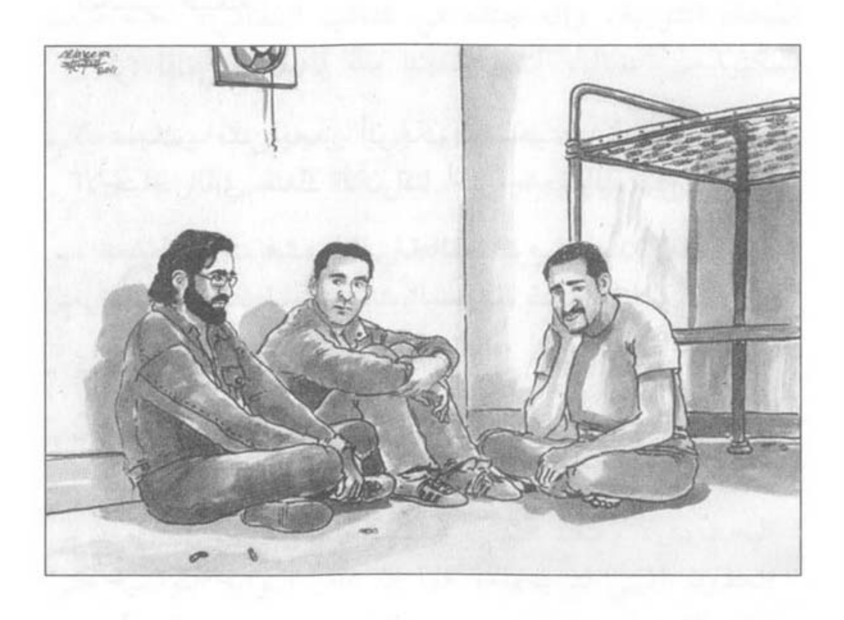
Twitter: @ketab_n

بعد أيام من مقامنا بدأ الحراس يعاملوننا معاملة حسنة عموما، إلا أنهم مختلفون في المعاملة اختلاف الناس. كان أفضلهم صديقنا عيسى قدقود، وأسوأهم آخر لا أعرف له اسما. كان نحيف الجسم، سيئ الخلق، قصير القامة، مُستبشَع اَلمنظر. ما إن أقمنا أياما حتى حفظنا برنامج دوام كل واحد منهم، إذ كنا نعرف من سيداوم اليوم وغدا وبعد غد وهكذا.

كنا نمشط شعورنا، وننظر إلى أوجهنا في مرآة عمياء، ونغتسل، ونغير ملابسنا، وكأننا على موعد مع حبيب. كنا نسخر من نفسية السجين فهو يقوم بهذه الأشياء ليوهم نفسه بأنه لم يفقد حريته بعد. فهو يود أن يبرهن لنفسه على أنه ما زالت لديه سلطة حرة على جسمه على الأقل، وفي التحرك داخل الأمتار التي يتمشى فيها.

كان الأديب الروسي ديستويفيكسي يتعجب من أن السجناء المحكوم عليهم بفترات طويلة يُكثرون التبجح والتفاخر، إلى أن توصل إلى أنهم يمارسون حريتهم بذلك هربا من تعاستهم. نعم، لقد كنا محجوبين عن العالم الخارجي كوحوش كاسرة، إلا أننا كنا نحاول أن نحيا بما نستطيع فعله.

(١٩)



في أحد الأيام كنا جالسين نتحدث حوالي الواحدة ظهرا، فسمعنا دقا على زنزانتنا من ناحية الزنزانة المصاقبة، تجاهلنا الدق بداية، لكن لطفي قال لي: لماذا لا ندق فقد يكون سجينا يريد أن يطمئن أو يتسلى، فقلت لا بأس.

دق لطفي، فرجع الدق بأرفع من ذي قبل، ثم بدأنا نسمع صوتا بعيدا.. بعيدا، اقتربنا وبدأنا نستمع..

سمعنا شخصا يتحدث بلهجة ليبية ويقول:

- انزل في اتجاه وصلة الكهرباء..، واقتلع الجانب الذي يليك، لقد اقتلعت جانبي منها.

فقلت للطفي:

- تمهل!، فلهجة الرجل ليبية، ولا ندري من هو، تمهل حتى نتحسس طبيعته.

فرد لطفي صائحا:

- لا عليك، فلن يعدو أن يكون سجينا آخر، ثم إن هذا الاحتياط الذي عندك الآن كنا أكثر حاجة إليه قبل الاعتقال!

بعد لحظات هشم لطفي جانب الوصلة عندنا فاقتربنا من الثغرة ليتراءى لنا شاب شديد السمرة، بادرنا قائلا:

- كيف الحال؟

- نحن بخير..

- من أنتم؟

- نحن صحافيون.

- من أنت؟

- أنا من النيجر، اسمي محمد نور.

كدنا نفتن فرحا بهذه النافذة التي فتحت لنا على الدنيا، فرغم أن محمدا سجين هو الآخر إلا أن أي طارئ على السجن يعتبر مستجدا وطريفا، بدأنا نسأله عن ما سمعه ورآه، ومتى اعتقل؟ وما هي قصته؟

علمنا منه أنه ظل يتردد على ليبيا منذ عشرين سنة، حيث يعمل وجه العام ثم يقفل كاراً إلى أهله في منطقة أغاديز المحاذية لليبيا بدولة النيجر، وقد أكسبه هذا العيش الطويل لهجته الليبية الواضحة.

سألنا محمداً عن الحظ العاثر الذي رمى به إلى هذا المكان، فقال إن رب عمله أحد الشخصيات النافذة في اللجان الثورية، وإنه جنده في كتائب القذافي، لكنه هرب فتمكنوا من اعتقاله، أثناء أحاديثنا معه قاطعنا فجأة قائلا:

- آه، لم أقل لكم، إن جاري في الزنزانة الأخرى صحافي تونسي اسمه لطفي غرس مراسل قناة العالم الإيرانية.

وقع علينا الخبر كالصاعقة، ثم ما لبثنا أن طلبنا من محمد أن يكون حلقة الوصل بيننا وبين لطفي غرس، بادر زميلي لطفي المسعودي سائلا:

- هل أخبرك كيف دخل أو كيف اعتقل؟

- نعم، أخبرني أنه دخل بصفة شرعية من معبر ذْهيبة الحدودي، ومعه سيارة عليها جهاز بث، لكن حرس الحدود الليبي لم يمهله، فما إن غادر البوابة التونسية حتى تلقاه الليبيون واختطفوه هو وسيارته.

شعرنا براحة كبيرة عندما علمنا أن أحد الصحافيين موجود بجوارنا، فقد تكون لديه معلومات عن العالم الآخر، فواصل لطفي سائلا:

- محمد، بالله عليك، اسأل لطفي غرس ماذا سمع عنا قبل اعتقالنا؟، ماذا قالت الجزيرة؟، وهل علم الناس أنا أحياء؟

استأذن محمد راجعا القهقرى في زنزانته كي يقترب من وصلة الكهرباء الأخرى (أصبحنا نسيمها «الهاتف») حتى يتحدث إلى لطفي غرس في الزنزانة الأخرى.

انتظرنا بفارغ الصبر ونحن نراقب محمد النيجري مضطجعا على جنبه، واضعا أذنه اليمنى على الثقب مستمعا إلى لطفي غرس، كنا نتحرق لنعرف ماذا قيل عنا. هل قالت الحكومة الليبية مثلا إن الثوار قتلونا؟، هل زعموا أننا قتلنا في معركة الزاوية؟، ما الذي يمنع سلطات القذافي أن تقول إننا سقطنا أثناء صراع على السيطرة على ساحة الشهداء وسط الزاوية؟، وإذا كان ذلك كذلك، فإن علينا أن نوطن النفس على المقام طويلا هنا. كانت لحظات صعبة مشحونة بالانتظار والترقب، بعد هنيهات بدأ محمد يزحف في اتجاهنا.

بدا محمد في بنطاله الأزرق وقميصه الأحمر، وكأنه قاض سينطق بحكم في لحظة حرجة. فالكلمات التي سينبس بها بدت لنا وكأنها شهادة أمل أو نهاية آخر.

- قال لطفي إنه سمع عن اعتقالكم أياما قبل اعتقاله عندما كان في مدينة بن قردان قادما إلى ليبيا، ويعتقد أن العبارة التي تستخدمها الجزيرة هي أنكم «مفقودون». لكنهم يذكرونكم في نشراتهم ويبرزون لكم صورا.. (طبعا علمنا لاحقا أن المعلومة غير دقيقة، فالجزيرة لم تستخدم عبارة «مفقودين»، وقد يكون الخطأ راجعا لمحمد النيجري الذي كانت لديه صعوبة في المصطلحات بالفصحى).

شعرنا بارتياح عارم، فالسلطات الليبية لم تدع أننا قتلنا، وتلك خطوة مهمة على طريق الخلاص.

تواصلت الاتصالات بيننا وبين لطفي غرس ومحمد نور النيجري، وأصبحنا ندعو لطفي المسعودي «وزير الاتصال» بعد أن قام بسحب سريره إلى نقطة التواصل، وأصبح يتحدث مع محمد بشكل دائم.

بعد أيام جاءنا محمد ليخبرنا أن لطفي بدوره فتح «هاتفا» مع شاب مصري محتجز في الزنزانة التي تليه، وأتحفنا فورا بكل ما حدثه به الشاب المصري.

كنت كلما تأملت حجم الأخبار ـ التي بدأت تقطر علينا قطرة.. قطرة رغم حراب المستبد ـ تذكرت المقولة المأثورة عن يوسف عليه السلام أنه دعا لأهل السجن قائلا: «اللهم اعطف عليهم قلوب الأخيار، ولا تعم عنهم الأخبار»، فرغم الأقفال والأصفاد ومصادرة كل شيء، ها نحن أولاء نسمع ما يدور في الدنيا من وراء جدراننا الصدئة.

(٢٠)

بعد مرور أسبوع على إقامتنا في طرابلس، سمعنا الأبواب تفتح ذات مساء، دخل أحد الحراس مناديا:

ـ أحمد فال..، تعال!.

وقعت الكلمات عليّ وعلى زميليّ وقعا صعبا، إذ لا ندري ما هي الوجهة. هل إلى زنزانة أخرى؟، أم إلى محكمة صورية؟ أم هو الإفراج؟، ثم ما هو مصير أصحابي وإلى أين أنا مأخوذ؟

مشكلة السجين أنه لا يملك إلا المشاعر ودماغا يقظا يفكر في كل الاحتمالات، فبسرعة فائقة يفترض ويحسب ويضرب ويطرح ويقسم...، ثم هو في النهاية لا يملك من أمره شيئا.

سأل أحد زمليّ متوسلا:

ـ إلى أين ستأخذونه؟

لكن السؤال تردد صداه بين الزنازين الموصدة..، والآذان المغلقة..، والأوجه المقفلة، ثم ارتد صفعةً إلى صاحبه دون جواب. جبذني الحرسي من يمناي، وأغمض عينيّ بلحاف بلاستيكي هذه المرة وأخرجني.

- روح - امش، أيوه. امش. ادخل. خليك واقف.

أحسست بأني داخل غرفة غير بعيدة من الزنزانة التي أخذت منها، كان الغطاء مشدودا بقوة على عينيّ، ورغم كل محاولات اللعب بجفوني كي أرى قليلا من تحت الخرقة فإنني لم أستطع استشعار طبيعة الغرفة، ما كنت أرى إلا الظلام، ولا أسمع غير الهمسات.

ثم جاء صوته أخيرا:

- خليه، قعمزْ يا أحمد!

بدون شك صوت الكاتب الأصلع، مساعد البحتر.

- كيف حالك يا أحمد؟

- بخير والحمد لله.

- أحمد، لدي سؤال أريدك أن تجيب عليه بصدق.

- تفضل يا أخي.

- أثناء وجودك في الزاوية، هل أرسلت أي مادة إعلامية لقناة الجزيرة؟

- لا.

- هل أنت متأكد يا أحمد؟

- نعم.

- سنعرض عليك شريطا مرئيا مستخرجا من ذاكرة كاميرا الجزيرة التي كانت بحوزتك، تظهر فيه وأنت تتحدث مع الجزيرة على الهاتف، ونريد تعليقك.

ـ تفضل يا أخي.

كانت لحظة صعبة، فأنا أدمنت منذ اعتقلت خلال كل الجلسات على التمسك بأني لم أرسل أي مادة إعلامية للجزيرة، وكنت محقا في ذلك، إلا أنني كنت مدلّسا في مصطلح «الإرسال»، فقد كان جهاز الإرسال الذي عندنا قد تعطل ولم نرسل أي مواد.

إلا أن «الاتصال الهاتفي» في لغة المحقق كان يشمل الإرسال، وأنا أفهم ذلك لكني كنت أكابر رافضا.

نادي الأصلع الحارسَ وأمره بأن يقرب مني حاسوبا، ثم نزع الغمّاضة عن إحدى عينيّ وفتح المادة.

رأيتني جالسا أتحدث واصفا ما جرى في الزاوية يوم الخامس من مارس. كنت أتحدث بلغة بدت لي مستفزة للقوم في تلك اللحظة، بل وفيها تحيز واضح للثوار.

كان الزميل المصور عمار الحمدان قد سجل كل مكالمتي مع الجزيرة بالكاميرا التي بحوزته، رأيتني في الصورة أتحدث وأقول:

ـ إن الزاوية تصرخ..، الناس هنا يقولون لنا: «أين الإعلام؟ أين الجزيرة؟»، رأيت بأم عيني شابا وقد قتل مضروبا بين عينيه، كان في مقتبل العمر..، الناس هنا يدافعون عن أنفسهم بكل شيء..، بالسلاح الخفيف والسكاكين والصدور العارية... إلخ.

بدت لي لغتي في تلك اللحظة لغة فيها نفَسٌ سيُؤوّله كل من يتعاطف مع النظام الليبي على أنه تحريض واضح.

كنت أنظر إلى صورتي وأنا أرتدي قميصا أسود أنيقا، وبيدي اليسرى ساعة قمحية. ورغم كثافة اللحظة، وصعوبة السؤال الذي يرفرف فوق رأسي منتظرا الإجابة كجلاد يكاد ينقض على فريسته، فإن خيالي ذهب بعيدا متمليا صورة الحرية وجمالها الذي تجسد أمامي في صورتي تلك.

كنت حينها مصون الكرامة أتحدث بتدفق دون رقيب!. ثم رأيت صورة الطائرة التي التقطنا في الزاوية، ورأيت الشعارات التي تُرفع وتُردد في ساحة الشهداء.

كان الأصلع يستمع إلى الشعارات التي يرددها ثوار الزاوية متقدّدا في إهابه، ثم يعلق قائلا:

ـ مش معقول!.. مش معقول!.

بعد أن أنهيت مشاهدة الصور، بادرني الأصلع قائلا:

ـ أما وقد شاهدت ما شاهدته، فسأعيد عليك السؤال.

ـ نعم، كان ذلك. كنت أتحدث مع شخص في الدوحة.

ـ هل تعرف أي مذيع؟

ـ لا أذكر.

بعد قليل من إجابتي على السؤال جاءني صوت البحتر، كانت آخر مرة سمعت فيها صوته قبل أسبوع.

ـ أيوه يا أحمد، الجزيرة هي التي عقدت الأمور. كانت الخطة أن يفرج عنكم، لكن الجزيرة عرقلت الخطة.

كانت هذه أول مرة أسمع فيها كلاما عن الإفراج، لكنني

لم أرتح لجلبي من جديد إلى التحقيق، ومواجهتي بصورتي متحدثا مع الجزيرة من الزاوية. بعد دقائق أمر البحتر الحارس أن يعيدني إلى الزنزانة.

وجدت لطفي وعمارا ينتظرانني على أحر من الجمر، أدخلني الحارس وأغلق الباب وانصرف.

ـ ماذا هناك؟، أين ذهبت؟، ماذا كانوا يريدون؟

سردت لهما كل ما دار، فخيمت سحابة حزن قاتمة على المكان، ضاعف منها سماع أصوات الزنازين تفتح وتغلق، وأقدام الحراس الخشنة تذهب وتجيء. كان وقت صلاة المغرب قد حان، فصلينا وأخلصنا الدعاء متضرعين إلى الله أن يعيد لنا حريتنا السليبة.

بينا نحن كذلك مهمومين نحلل القصة ونفكر في مغازي تجدُّدِ التحقيقِ بعد انقطاعه، إذ سمعنا جلبة فتح الأبواب الحديدية يتخللها صوت البحتر بوضوح. جاء ومعه كاتبه الأصلع وبعض الحراس، وقف عند الباب وطلب من حراسه الانصراف.

جاء هذه المرة يرتدي بزة عسكرية، وما إن اندلق من باب الزنزانة حتى بادرنا قائلا بلغة مفعمة بالإحساس بالسيطرة:

ـ كيف حالكم...؟

ـ بخير والحمد لله.

ـ اسمعوا، لقد جئتكم بفكرة أتمنى مساعدتي على تنفيذها، أنا ـ نطقها ممالة كالعادة ـ أحاول مساعدتكم في ملفكم المعقد، أنا.. أنا.. أفهم أنكم لو ذهبتم إلى العدالة فستواجهون أحكاما قاسية، لأن التهم الموجهة إليكم

تستدعي عقوبات مغلظة، لكنني - إن وافقتم على خطتي - سأتوصل إلى حل، ويمكنني إقناع النائب العام بأن لا يقدمكم للمحاكمة، فأنا رجل قانون وهو رجل قانون، ويمكننا أن نتفاهم بسهولة.

كان البحتر يتحدث واقفا واضعا يده على السرير الحديدي الشاغر في زنزانتنا، كان أقرب الأسرة إلى السرير الذي كنت جالسا عليه.

كان يقطّع حديثه بالنظرات الماكرة التي تشي بأنه لا يصدق معظم ما يقوله، ثم يلتفت يمنة ويسرة ويتوقف بين الجمل ليقول:

- «فاهمينيّ واللّ لا؟ فاهمين علي كلكم؟».

ثم واصل قائلا:

- سنذهب بكم إلى أحد الفنادق ونسلمكم أدواتكم سامحين لكم بالتصوير ونقل الحقيقة كما هي، لا كما تصورها الجزيرة .

تبارى ثلاثتنا شارحين له استعدادنا لنقل الأمور كما هي في طرابلس إن وفرت لنا الفرصة، ثم بادره لطفي سائلا:

- هل ستسمحون لنا بالتصوير وإرسال مواد إخبارية للجزيرة؟

- نعم، طبعا. سنسمح لكم بكل ذلك، ثم يمكنكم أن تسافروا بعد ذلك متى شئتم.

فقاطعه عمار قائلا:

- هل سيسمح لنا بالاتصال بأهلينا؟

- طبعا، قلت لكم ستكونون أحرارا، يمكنكم حتى الاتصال بالجزيرة وبمن أردتم. لكن عليكم نقل الحقيقة كما هي، نحن لا نريدكم أن تجاملونا في تقاريركم. كل ما نريده هو أن تحكّموا ضمائركم وتنقلوا الحقيقة، اتفقنا؟

- نعم!

خرج ثم توارى وراء باب الزنزانة متحدثا هاتفيا، ثم رجع بعد دقائق. دخل إلى زنزانتنا قائلا بهدوء:

- غداً على تمام الساعة الحادية عشرة سيأتي نقيب الصحافيين الليبيين ليأخذكم معه، أتمنى أن لا تخرقوا اتفاقنا على نقل الحقيقة.

كانت ليلة ليلاء أقلقنا ظلامَها بالأماني والمخاوف، والتحاليل وضرب الأخماس بالأسداس، والحلم بالحرية. هل سيصدق أخيرا وهو الكذوب؟، هل سيأتي نقيب الصحافيين الساعة الحادية عشرة صباحا ليصطحبنا معه إلى حرية منقوصة تمهد لأخرى حقيقية؟، أم إن الرجل موله بحرق الأعصاب كلِفٌ بإخلاف المواعيد؟، ثم لماذا يتركوننا نصور؟، وهل حقا سيسمحون لنا بذلك وبالتواصل مع الجزيرة؟

استيقظنا على موعد الإفطار حوالي الساعة التاسعة صباحا، ودبت الحركة في زنزانتنا البائسة استعدادا للتحرر. اغتسل كل منا، وحاولنا ترتيب المظهر استعدادا لرؤية الناس. خرجت من الحمام منتشيا وسحبت الجاكيت التي أتوسدها كل ليلة ولبستها، فالتفت إليّ عمار قائلا:

ـ المشكلة أننا قد نتعب أنفسنا بالتجهز والتجمل، ثم لا يأتي الرجل مثلما حصل معنا من قبل في سجننا السابق!

فأجابه لطفي ممازحا مرددا العبارة التي أصبحت شعارنا:

ـ هوّن عليك!، هوّن عليك!، لم يضع شيء، ولم يكن شيء أصلا لديك!

جلسنا القرفصاء ننتظر الحادية عشرة بتحرق، انتظارَ الحبيبِ حبيبَه.

لم تكن طبيعة الإفراج الذي ننتظره واضحة في أذهاننا، لذلك ظلت أسئلة جدية تتقافز في أذهاننا منتظرين داخل زنزانتنا الموحشة.

فجأة صكّت جلبةُ خلع الأقفال أسماعنا. ورغم أننا كنا ننتظر الأحسن هذه المرة، ومن الطبيعي أن يكون صوت فتح الأبواب مفرحا، فإن الطريقة التي تفتح بها هذه الأبواب تجعل السجين دائما يُراع كلما فتحت.

اتضح تماما أن الخطوات في طريقها إلى زنزانتنا. دخل حرسيان بوجهين مفتوحين لأول مرة، خيل لنا أن القفل الحديدي الذي كان يمنعهما من الابتسامة قد كسر. فجأة تحولا إلى كائنين أليفيْن يعرفان الابتسامة والمزاح وأحاديث الناس، إذ لاحظا للمرة الأولى وضعية الزنزانة، فقال أحدهما وهو يطلب منا الخروج:

ـ جهزوا أنفسكم. والله الزنزانة جيدة، لكن ليت هذا البلاط كان مفروشا بشيء، إذ لا شك أن البرد قد يكون أتعبكم.

كان الحرسيان في قمة الطيبة والخلق، أحدهما نعرفه

جيدا، إذ كان معنا في السجن الخارجي واسمه عاشور، تقدم الحرسي وفتح.

فتح الباب الحديدي الذي كان مطبقا. باب رمادي سميك هو الحاجز الذي يقف بيننا وبين الحياة، باب..، شيء..، كتلة صماء من الحديد..!

لكنها كفيلة بأن ترجعك إلى أسوأ من عالم الإنسان الأول، كفيلة بأن تذكرك بضعفك وضآلتك ماديا، أنت بكل ما تملكه من خيال وآمال.. صغير صغير!، يمكن لركن نحيل في زنزانة قذرة أن يُصمتك ويواريك إلى الأبد.

ألا ما أضعف الإنسان إذا صودرت حريته، فالتصرف بحرية هو النقطة الفاصلة بين الوجود والعدم، فعندما يقرر مخبر أن يلقيك في ركن زنزانة قذرة تدخل عالم العدم.. أو ترجع إلى عالم الذر، فتتحول إلى مشروع إنسان ينتظر أن يولد من جديد.

لكن العدم هنا عدم مادي، فجدران السجن في النهاية هي التي خرجت من داخلها الكلمات التي غيرت وجه التاريخ، بداية من «يا صاحبيْ السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار؟»، مرورا بتأوهات سجناء الباستيل الحالمين بحرية سليبة، وانتهاء بنفثات مانديلا وسيد قطب وعلي عزت بيغوفيتش.

فتح الباب.. فخرجنا!.

كانت أشعة الشمس المتلألئة بلسما يشفي الكلوم، تحولت الشمس في تلك اللحظة إلى كائن رباني يرسل الدفء إلى قلوب تناوشتها الجراح. أحسست بالشعاع الدافئ ونحن

نمشي في ردهات المبنى الرمادي، بعد أن ضاقت عيوننا بالسراديب المظلمة.

أحسست في تلك اللحظة ـ وأنا أرى خيوط الشمس تسطع على جدران السجن في ربيع طرابلس ـ وكأن الشمس استقالت من دورها الطبيعي في تدفئة الأرض وإنارة الدروب ليصبح لها هدف واحد..، أن تعلن لنا بوضوح أننا أصبحنا أحرارا.

بدأنا نمشي متعرفين على طبيعة المكان ونحن لا نصدق أن الحراس لم يعصبوا عيوننا. كانت زنزانتنا في الطابق العلوي من المبنى، مطلة على ساحة تتوسط مبنى دائرياً واسعاً. بينما يقف عساكر قرب باب حديدي طويل[(١)].

نزلنا درجيْن ثم هبطنا وسط الساحة. كان الحرسي يتقدم أمامنا آخذا إيانا في اتجاه الباب الحديدي الضخم الذي يواري كل ما يدور داخل هذا السجن التابع للاستخبارات. كان يتقدم ونحن وراءه، بينما تلتهمنا عيون الحراس الواقفين على الشرفات وفي جوانب المبنى.

فجأة عرضت مني التفاتة سريعة يساراً فرأيتهما واقفين يراقبان: البُحتُر والأصلع!

كانا متسمّرين أمام باب كُتب عليه «القسم الثالث»، وكان يقف قربهما جندي يحمل قيودا حديدية. بديا لي في تلك اللحظة كائنين ضئيلين مشوّهيْن. لم أرتح لمنظرهما فتذكرت دعاء الغنوي في سجنه وأنا أخطو خطواتي الأولى نحو

---

(١) تأكد لنا أخيراً أن اسم هذا السجن هو «السجن المفتوح» ويعتبر بمقاييس سجون القذافي مكاناً للنزهة يوقف فيه أصحاب الجنح.

الحرية: «اللهم إني أعوذ بك من السجن والدَّيْن، والسب والضرب، ومن الغل والقيد، ومن التعذيب والتجسيس، وأعوذ بك من الحوْر بعد الكوْر».

ما إن اقتربنا من الباب الرئيسي الذي يؤدي إلى الشارع، حتى قال أحد الحراس:

ـ لفوا يسارا، فما زالت هناك إجراءات قبل الخروج من الباب الرئيسي.

صعدنا درجا ودخلنا غرفة فيها طاولة وعدة مقاعد ومكتب. كان يجلس وراء المكتب شاب ثلاثيني، ذو تقاسيم باردة، سلمنا فرد التحية بمثلها طالبا منا الجلوس.

خرج الحرسي وعاد بعد قليل ومعه رجل خمسيني، نحيف الجسم، حليق الوجه، مُرْهَقُ القسمات. دخل ثم قال بصوت هامس واضح لا ينتمي لعالم السجون:

ـ أنا عاشور التليسي، نقيب الصحافيين الليبيين. كيف حالكم؟ أتمنى أن تكون صحتكم على ما يرام؟

ـ نحن بخير حمدا لله.

ـ أنت المسعودي، وأنت عمار، وأنت أحمد فال...، أليس كذلك؟

ـ بلى، هو كذلك.

أثناء ذلك، اقترب الحرسي حاملاً كمية من الطرود، قائلا بلهجة مبتهجة:

ـ هذه أماناتكم.

كانت طرودا صُفراً، كتب على كل منها بخط جميل اسم صاحبه.

تسلمنا أماناتنا كاملة باستثناء جهاز «آي فون» الخاص بي، وكاميرا تصوير فيديو صغيرة، وذاكرة الكاميرا الكبيرة التي يوجد داخلها كل ما صورناه، فقد أشار البحتر في لقائه الأخير معنا إلى أن هناك أشياء قد لا يرجعونها، وعلينا ألا نسأل عنها، تسلمنا أشياءنا ثم خرجنا من الباب.

بدا الشارع مفعما بالحياة، ضاجا بحركة السير.

ودّعنا الحراسَ الذين خرجوا معنا إلى الباب الرئيسي، ووعدت عيسى أن أتصل به لحظة خروجنا من ليبيا.

ركبنا، ثلاثتنا، سيارة التليسي، وانطلقنا، كانت عدة سيارات تسير وراءنا عن بعد. قال التليسي لحظة تحرك السيارة بعد أن أصبحنا وحدنا:

- نحن في طريقنا إلى «هيئة الإعلام الخارجي»، ثم بعد ذلك قد تذهبون إلى الفندق، ومن ثم تسافرون متى شئتم، أو هذا ما فهمته.

بدأنا نمطر التليسي بأسئلة لا تحصى، فمئات الأسئلة التي ماتت على شفاهنا داخل الزنازين بدأت تتململ على ألسنتنا بعد أن دبت فيها الحياة.

انطلقت السيارة مغذّة وسط طرابلس، كنت والتليسي في المقعد الأمامي، بينما كان لطفي وعمار في المقاعد الخلفية. بدت حركة السير طبيعة تماما، وكان طعم الحرية يضمخ الشوارعَ والأجواء، فبادرت التليسي سائلا:

ـ كيف الوضع الأمني؟

ـ جيد، فهجمات الناتو دقيقة وانتقائية، مما يجعل الخسائر المدنية ضئيلة.

ثم جاء صوت لطفي:

ـ لكن الغريب أن الشوارع هادئة وكأن شيئا لم يكن.

ـ نعم، الوضع آمن وطبيعي. قد يكون المنظر الوحيد الذي يشي بأن الأمور غير طبيعية هو الطوابير الطويلة أمام محطات البنزين، قالها التليسي وهو يحاول الاتصال من هاتفه الذي يقربه من أذنه اليمنى.

في هذه اللحظة، كنا قد وصلنا إلى إشارة ضوئية، فرأيت سائق سيارة يزمر منزعجا على آخر، فشعرت بأني عدت إلى عالم الحرية الطبيعي..، عالم تصارع الناس على توافه الأمور.

ما إن تجاوزنا التقاطع المروري حتى رأيت صِبية خارجين من إحدى المدارس، لوحة رائعة..

كان الصبية يرتدون ملابس المدرسة وحقائبهم على ظهورهم، وهم يتراكضون ويضحكون.

مشكلة السجن أنه يحرمك من الوجه الوضاء للدنيا، ومن الجانب المشرق من النفس البشرية. يحرمك من رؤية المرأة والطفل، يحرمك من الحنان والجمال المتجسديْن في أجمل لوحة في هذه الدنيا...، ومن البراءة والطهر والمستقبل الفسيح...

كنت أقلب الطرف في شوارع المدينة التي استضافتنا أسبوعين، دون أن نرى منها غير الجدران الداخلية للزنازين المعتمة. رأيت حافلة تتجهز للسفر ومعظم ركابها أفارقة، مما أعاد إلى ذهني صورة الشاب المالي موسى ورهطه الذين رأيتهم في نالوت.

وبَيْنَا نحنُ نتفرس الشوارع بعيوننا إذ بدأ التليسي يتحدث على الهاتف مخاطبا شخصا آخر:

ـ الشباب معي، وهم بخير. معي ثلاثتهم..، نعم يمكنك التحدث معهم.

مد التليسي الهاتف إلى عمار قائلا:

ـ هذا مؤيد اللامي، نقيب الصحافيين العراقيين ـ وهو أكثر من تابع قصتكم ـ يود الحديث إليكم. (كان مؤيد اللامي منسق برنامج الشرق الأوسط في الاتحاد الدولي للصحافيين ونقيب الصحافيين العراقيين، ولعب دوراً بارزاً في الحملة الدولية للإفراج عنا).

تحدثنا معه واحداً واحداً، ثم استفسر اللامي من التليسي عما إذا كان يمكن لأشخاص من الجزيرة أن يتصلوا بنا على هاتفه؟، فوافق. بعد ثوان رن الهاتف، وكان الاتصال من الدوحة.

ـ السلام عليكم. . .، كيف حالك يا أخي؟

كان صوت الدكتور حسن طه المجمر واضحا بلهجته السودانية المحببة.

ـ بخير والحمد لله.

كان على الخط كذلك كل من محمد داود، ومعتصم أبو داري، وآخرون. كانوا يريدون التأكد من أننا بخير. فالدكتور المجمر ظل مشغولا منذ اعتقالنا بالاتصال بالهيئات الحقوقية والدولية من أجل الإفراج عنا، بما أنه يعمل والزميل سامي الحاج (المعتقل السابق في غوانتانامو) في قسم الحقوق والحريات بشبكة الجزيرة.

بعد حوالي ٢٠ دقيقة من السير وصلنا إلى حِمى «هيئة الإعلام الخارجي».

كنت قد زرت نفس المكان في نوفمبر من عام ٢٠١٠ عندما جئت محاولا إجراء سلسلة تقارير عن ليبيا، لكن السلطات رفضت يومها المهمة رفضاً باتاً.

تبدت أمامنا هيئة الإعلام الخارجي ـ وهي الهيئة المشرفة على الإعلام في ليبيا، وعلى التعامل مع الصحافيين الأجانب ـ معسكرة كأنها قلعة محصنة. فالسيارات العسكرية والسلاح الثقيل كانا محيطين بالمبنى. اقتربنا من العسكري الواقف الممسك بزناده كأنه يستعد لإطلاق النار في أي لحظة، واستأذنه التليسي في الدخول فلم يسمح.

قام العسكري بإجراء بعض الاتصالات، ثم أذن لنا لاحقا.

مشينا مسافة لا بأس بها في محيط مبنى هيئة الإعلام الخارجي نتيجة الحراسة المشددة. وكان من مفارقات التاريخ أن المكان الذي تقع عليه مباني هيئة الإعلام الخارجي ـ أكبر بوق من أبواق تبرير حرب القذافي على شعبه ـ كان مساحة من مساحات التحرير، فقد جرت هنا ـ على شارع الشط ـ

«معركة الهاني»[٢] في الرابع والعشرين من أكتوبر عام ١٩١١ ضد المستعمر الإيطالي، أي قبل ١٠٠ عام بالتمام والكمال.

بعد هنيهات وجدنا أنفسنا داخل مكتب مدير الإعلام الخارجي عبد المجيد الدرسي.

كان عبد المجيد رجلا ستينياً، فظ القسمات، ضخم الشارب، ممتلئ الكراديس، كأنه لوحة أوروبية من العصر الوسيط، لكن شعره الطويل وشاربه وطريقته في الحديث لا تترك لك مجالا للشك في انتمائه للجيل الإيديولوجي الذي غزا العالم العربي أواسط القرن الماضي.

قال عبد المجيد بلغة باردة تفسر برودتَها النظرةُ الحيرى التي كانت تضج بها عيناه:

ـ أهلا وسهلا، تفضلوا...

كانت هذه أول مرة ندخل فيها مكتبا أنيقا منذ اعتقالنا، فبدت الكراسي الذهبية، والتلفزيون الأسود المسطح، والطاولة العنابية التي تتوسطها صينية الشاي، لوحة فنية مرسومة، يستحيل أن تكون من الواقع الطبيعي.

جلس عبد المجيد وراء مكتبه قائلا:

ـ شاي أو قهوة؟

لكنه قبل أن يسمع أي جواب منا انطلق قائلا:

---

(٢) خليفة محمد التليسي، **معجم معارك الجهاد في ليبيا ١٩١١-١٩٣١** ([د. م.]: الدار العربية للكتاب، ١٩٨٣)، ص ٢٦-٢٩.

ـ كيف حالكم؟ أتمنى أن تكونوا بخير!

أثناء ذلك كان أحد مساعديه قد أترع لكل منا كأسا من الشاي وكأس ماء.

مال عليّ لطفي قائلا:

ـ هذا الماء شديد النظافة! هل لاحظت؟

ـ نعم، هو كذلك.

ـ هذا يعني أن الماء الذي كنا نشربه ملوث، لأن صفاءه ولونه بعيدان من هذا.

ـ كل شيء محتمل يا صديقي.

بعد أن اطمأن بنا المجلس بادرتُ عبد المجيد قائلا:

ـ قد نحتاج جهاز تصوير وبعض المعدات من عندكم يا أستاذ، ثم أردف عمار شارحا بعض الأشياء التي يحتاجها كي يتمكن من التصوير.

صمت الرجل كأنه يفكر في جواب، متشاغلاً بالحاسوب الذي بين يديه، فبادر عاشور التليسي قائلاً:

ـ نعم الشباب تنقصهم بعض الأشياء التي ضاعت أو تلفت أثناء الاعتقال، وكان الاتفاق مع مَن أفرج عنهم أنهم سيصورون بعض التقارير من طرابلس، وأنكم ستساعدون في ذلك فنتمنى مساعدتهم.

رفع عبد المجيد عينيه من وراء نظارتيه الداكنتين ـ دُكْنةَ ليبيا بعد أربعين حولا من حكم القذافي ـ قائلا:

ـ ليست عندنا أجهزة من هذا القبيل، والشباب لن يصوروا، سيذهبون إلى الفندق على أن يرتب لهم السفر ليعودوا إلى بلدانهم.

ما إن سمعنا عبارة «العودة إلى بلدانهم» حتى نزت أفئدتنا إلى اللّهَوَات تَحَرُّقاً لتك اللحظة!

ثم بدأ عبد المجيد يفاضل بين أنواع الفنادق التي علينا التوجه إليها، وهو يتحدث مع أحد مساعديه..

ـ خذهم إلى فندق ماريوت.. لا، إنه ليس بتك النظافة..، هناك فندق أفضل.

أثناء الأخذ والرد كان عمار يميل عليّ هامسا بلهجته الفلسطينية:

ـ والله حرق أعصاب يا أحمد..، كل مكان ملائم إلْنا.. المهم نطلع بس!

بينا عبد المجيد ومساعده يناقشان طبيعة الفندق الذي سنذهب إليه، إذ دخل شاب أحمر نحيف، من ذلك الضرب من الناس الذي تحسبه في دهشة دائما، يتحدث بتلعثم، وينظر بتلعثم، ويمشي بتردد، دخل متردداً كأنه دخل المكان الخطأ، ثم قال بتأتأة:

ـ أريد أسماءكم..، أسماء من سيذهبون إلى الفندق.

وقبل أن نملي عليه أسماءنا، التفت إلى عبد المجيد سائلا:

ـ في أي فندق ننزلهم؟

ـ رتبْ لهم مكانا في فندق ماريوت أو في فندق باب البحر.

كانت هذه الكلمات تنزل علينا كأنها الغيث المريء بعد سنوات القحط.

اختفى الشاب المرتبك هنيهات، ثم عاد ليقول بتردد:

ـ عليكم.. ينبغي.. دقيقة! نعم، عليكم التحرك الآن إلى الفندق.

أخذنا التليسي وكانت سيارتان تتبعاننا. لففنا عدة شوارع وتوقفنا أمام أحد الفنادق. دخل أحد مرافقينا ليستفسر، لكنه عاد طالباً منا الذهاب إلى فندق آخر. دخلنا فندقا ـ لا أذكر اسمه ـ وجلسنا في بهوه قرب جهاز تلفزيون، وبدأنا نتابع أخبار العالم غير مصدقين.

كنا في غاية الدهشة ونحن نتابع الأخبار، فمشاهدة التلفزيون تحولت في أذهاننا إلى نوع من ممارسة التحرر، كانت المحطة التي شاهدناها هي «فرنسا ٢٤».

ثم إن الأخبار كانت تشي بأن العالم قد تغير، رغم أننا لم نغب عنه أكثر من شهر.

فالمصطلحات غريبة، ونقاط التوتر في العالم ليست تلك التي عهدنا، فقد تراجعت قصة مصر وبرزت سوريا (دخلنا السجن قبل أن يحدث أي شيء في سوريا)، ثم إن الخبر الرئيسي كان عن هروب وزير خارجية ليبيا موسى كوسا، وانشقاقه عن نظام العقيد المعقد.

جلسنا محملقين نتابع بنهم لافت، ولو أن أحد الناس في تلك اللحظة التقط لنا صورة لرأى عجباً.

انتظرنا وقتا لا بأس به، لكننا كنا مرتاحين، إذ الغريب

في الخارج توَّه من السجن هو اتساع صدره وراحة باله، فطعم الحرية الجديد يجعله لا ينزعج ولا تَقْلِسُ نفسُه من صغار الأمور، مثل الانتظار أو التأخر عن أمر معين، فطعم الحرية الجديد واق من تعكر المزاج.

بعد وهلة، أخبرنا أهل الفندق أنه لا مكان لديهم فخرجنا، وبدأنا نلف شوارع طرابلس.

ما إن توسطنا شارع عمر المختار ـ غير بعيد من الساحة الخضراء ـ حتى تجاوزتنا إحدى سيارات الاستخبارات التي معنا، وطلب سائقها من التليسي أن يعود بنا إلى هيئة الإعلام الخارجي بناء على طلب عبد المجيد، أثار الأمر الشبهة في نفوسنا بداية، لكننا أوّلناه لاحقا بأنه ربما يرجع إلى خلل تنظيمي.

وقفت السيارة أمام هيئة الإعلام الخارجي ونزلنا ثلاثتنا..، يتقدمنا التليسي، مشينا قليلا وتجاوزنا الحراسة الشديدة لنجد أنفسنا داخل مكتب عبد المجيد من جديد.

ألفيناه واقفا وراء مكتبه كأنه يستعد للخروج، فبادره التليسي قائلا بلهجة مفعمة بنبرة احتجاج:

ـ ها قد عاد الشباب، ماذا تريدون منهم؟

رد عبد المجيد ـ وهو ينظر كعادته من فوق نظارتيه اللتين يدحرجهما في اتجاه أنفه حتى يمكنه النظر بلا واسطة ـ قائلا:

ـ لا نريد منهم شيئا، ومن طلب منهم الرجوع؟

- أخبرتنا المجموعة الأمنية التي ترافقنا أنك تريدنا.

- ليس الأمر كذلك، أنا لم أطلب منهم الرجوع، ولعل لبسا حصل.

أثناء ذلك، سمعنا شخصا يتحدث باللهجة التونسية، كان صوته يقترب من باب المكتب حاملاً معه في أذهاننا أسئلة غير ناضجة. دخل فجأة، بدا شابا أبيض البشرة، أقرب إلى القصر، باسمَ الوجه، ثم بادر بعد أن قدم نفسه على أنه من السفارة التونسية قائلا:

- كيف حالك يا سي لطفي؟

ثم قفز وعانق لطفي، وواصل حديثه بسرعة كأنه يحاول الاعتذار عن أي تقصير أو تأخير في الإفراج عنه، قال مخاطبا لطفي بلغة واثقة:

- السيد رئيس الوزراء كان الآن على الخط يطمئن عليك، وسيكلمك بعد قليل، وسعادة السفير في الطريق إليك، كيف الصحة؟

كان الرجل يستفسر من لطفي، بينما كان عقلي يقارن بين حقبتين عرفهما المواطن التونسي، لو كان لطفي معتقلا أيام الاستبداد فهل كان سيسأل عنه أحد؟، هل كان السفير التونسي والحكومة التونسية سيقلبان العالم لأن مواطناً تونسياً اعتقل في ليبيا؟

شعرت بسعادة غامرة في تلك اللحظة، فها هو ذا المواطن العربي يصبح أخيرا شيئا مذكورا، ها هي ذي دولة عربية تهتم بمواطن لها وتدافع عنه.

بعد عدة دقائق دخل السفير التونسي، وما إن اطمأن به المجلس حتى رن هاتفه فمد يده إلى لطفي قائلا:

ـ هذا السيد رئيس الوزراء يودّ الاطمئنان عليك.

لم يتمالك لطفي نفسه...، كان الدمع ممتقعا في عينيه حبورا، فبعد أن عاش في بلاده ثلاثين حولاً كسقط المتاع، ها هو أخيرا يشعر بأنه تونسي. استيقظت في هذه اللحظة في أغوار نفسه كل الأمجاد المدفونة قرب مسجد أبي زمعة البلوي، وفي حارات القيروان، ووسط مزارع الزيتون، لتنفجر دموع وفاء وتعلقٍ بوطن كأنه يكتشف انتماءه إليه أولَ مرة، ألا ما أفظع الاستبداد!!.

أنهى رئيس الوزراء التونسي الباجي قائد السبسي حديثه مع لطفي قائلا:

ـ سي لطفي، لقد بذلنا كل ما نستطيع، وأنا في انتظارك أنت وزميلاك كي نقيم لكم حفلا رسميا، بعد عبوركم نقطة الحدود الليبية التونسية عند رأس جدير.

بعد حوالي ربع ساعة دخل السفير الموريتاني لدى ليبيا محمد الأمين ولد خطري، كانت كل ملامحه تشي بأنه قادم من بلادي، إذ بدا أسمر السحنة، نحيف الجسم خفيفه، باسم القسمات، حتى إنك لو نزعت عنه صفة السفارة، وعدت به إلى وسط موريتانيا، لجاز أن يكون أيَّ شخص آخر ممن تصادفهم هناك، بائعا متجولا، عالما في اللغة، ناشطا سياسيا، أو حتى شيخ محظرة.

بعد اطمئنان السفير عليّ، استأذنته في أن أتصل من هاتفه على الوالدة.

أمسكت الهاتف وأنا خائف وجل من الاتصال على الوالدة...

كيف ستجيب؟، ما هي أول كلمة ستنطق بها عندما أنطق تلك الكلمة السحرية التي طالما حلمت بها طيلة الأسابيع الماضية: «أمّنا..كيف الحال؟»، ثم كيف صحتها وهل هي بخير؟، أولم يخبرنا الحراس في السجن أنهم رأوا والدة لطفي على الشاشة ولم يروا أمي؟

قد يكون حصل ما كنت أخشاه..، وإذا كانت هي من سيرد على الهاتف، فهل ستتماسك وتتحدث معي طبيعيا؟، أم أنها ستنهار وأنا بعيد ولا أستطيع كفكفة شعورها الطاغي؟

كل ذلك مر بخيالي في عدة ثوان...، ثم وضعت الرقم...

رنين! رنين! رنين!

- آلو...

- أمّنا.. كيف الحال؟

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

- كيف الحال؟

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

وانقطع الاتصال...

أهرعت والدتي واتخذت ركنا قصيا من بيتها وسجدت...

سجدت في نفس الركن الذي سجدت فيه آلاف السجدات خلال الأسابيع الماضية وهي تتضرع إلى ربها من أجل هذه اللحظة..، يا طالما قلبت البصر في جوف هذه الغرفة متضرعة، وقد أرخى الليل سُدوله ونامت العيون، وخلد كل إلى راحته وأمانيه، بينما ظلت هي كأنها الساهد الوحيد في هذا الكون.

بدأت تناجي ربها بلسان متعثر...

فتحولت الغرفة إلى لوحة قدسية مرسومة بريشة الأمومة ووثبات الوجدان.

وجه ممرغ خاضع.. وهاتف مُلْقىً يرن رنينا.

نعم، كانت الأمنية أن تسمع صوتي، لكنها أحست في هذه اللحظة بأن الحديث معي ضرب من الترف هي في غنى عنه..، أحست بأنها تريد الحديث مع آخر...

عاودت الاتصال حتى أجابت بعد محاولات...

- أنا بخير ويبدو أننا في طريقنا إلى الحرية، كل أموري على ما يرام.

- اللهم لك الحمد! يا الله!، يا رب!، إذن متى ستأتي؟

- لا أدري بالضبط، لكنهم يقولون قريبا.

وانتهى الاتصال.

التفتُّ بعد قطع اتصالي فوجدت الدموع تنهمر من عينيْ عمار. كان يتحدث أحيانا مع أبويه وأخرى مع زوجه، لكن البكاء كان يقلق اتصالاته، فقد كان أشدنا رقةً، وكانت

مشاهدته وهو يتحدث تفطر الأكباد. التفتُّ يسرة فوجدت لطفي يتحدث مع الإذاعة التونسية، كان حديثا معبرا ومنبئا بأن تونس التي تربى فيها قد تغيرت بعد الثورة إلى الأبد، سمعته ينفث كلمات من قبيل:

ـ هذه هي تونس التي أشتاق لأرضها..، تونس التي تهتم بمواطنيها...، هذه أول مرة أشعر بأني تونسي..، تونس ما بعد الثورة.

ثم اطمأن المجلس بالسفيرين الموريتاني والتونسي...

بادرني السفير الموريتاني:

ـ نحن ننتظر الإفراج عنكم منذ عشرة أيام، فالقوم هنا كانوا يعدوننا بالإفراج عنكم كل ساعة وكل يوم.

ـ شيء عجيب!

ـ الحكومة الموريتانية لم تدخر جهدا نهائيا، وأنا الآن كنت على الخط مع مدير ديوان الرئيس، وهو مهتم بشكل كبير بالموضوع.

ـ أكيد.. أكيد.

ـ ثم إن المجتمع الموريتاني يشتاق لرؤيتك، وهناك حملة قوية للمطالبة بإطلاق سراحك يجمع عليها المجتمع، ويساهم فيها بجميع طبقاته.

ـ نعم، ذاك الظن ببني قومي.

جرى كل هذا داخل مكتب عبد المجيد الدرسي الذي استأذن وانصرف، لكنه قبل أن ينصرف قال لنا إنه كان يتابع

الجزيرة مرات أسبوعيا، لكن منذ اندلعت الأحداث في ليبيا لم يشاهدها ولو مرة واحدة لعدم مصداقيتها.

ما إن خرج عبد المجيد حتى أخذ التليسي جهاز التحكم المرمي على المكتب وفتح التلفزيون فرأينا الجزيرة!، كان الرجل يتابعها إذن.

بعد قليل دخل الشاب المرتبك...

دخل وخرج..، فخلف وراءه نوعاً من الارتباك برز في أحاديثنا مع بعضنا البعض.

عجيب أمر بعض الناس، توجد لديه خصائص سلبية ترافقها قدرة هائلة على نقلها للآخرين، بعد هنيهات دخل محمحماً وقال متأتئاً:

- السادة السفراء لو سمحتم...، هؤلاء الشباب نحتاجهم لمدة عشر دقائق، فهناك شخصية ثورية تاريخية ستقابلهم لدقائق.

قفز السفير الموريتاني مخاطبا المرتبك:

- عفواً، إن لديّ أوامر من بلدي بأن لا أفارق أحمد فال حتى أوصله لرأس اجدير بسيارة السفارة.

مسح المرتبك يده على رأسه متمتما:

- أيوه.. بس...، هي عشر دقائق فقط، أعطني رقم هاتفك لأتصل بك بعد نهاية المقابلة كي تأتي لتأخذه.

خلال لحظات وجدنا أنفسنا خارج مكتب مدير الاتصال الخارجي، خرجنا والسفراء ومجموعة من رجال المخابرات،

افترقنا عند الباب، وودعنا السفراء على أننا قد نلتقي خلال ساعات.

مشينا في اتجاه سيارة التليسي التي تقف على قارعة الطريق، بينما تحيط بها مجموعة من سيارات الاستخبارات، أو قل سيارات الإعلاميين!، فالمسافة في نظام القذافي تتلاشى ما بين الخاص والعام، والعسكري والمدني، بشكل هو وحده الذي يفسر كيف سيطر نظام الرجل على حكم هذه البلاد الجميلة اثنين وأربعين عاما.

التفت التليسي إلى أحد رجال الاستخبارات وسأله عن وجهتنا، فرد المخبر بأننا في طريقنا إلى النائب العام لتوقيع أوراق الإفراج عنا، ثم سنعود بعد ساعات!

ما إن ركبنا سيارة التليسي وتحركنا حتى التفت إليّ قائلا:

ـ أتمنى أن لا يعودوا بكم إلى معتقلكم!، المشكلة أيضا أنهم لو عادوا بكم فقد يضعونني معكم هذه المرة!

ـ على كل حال أهلا بك!، نحن نرحب بك في زنزانتنا، وهناك سرير احتياطي!

ضحك التليسي بصوت مرتفع بينما مرت فتاة من أمام سيارته فعلق قائلا:

ـ يا الله! شوف ما أجملها!

كانت أول مرة نرى فيها امرأة جميلة منذ دخلنا السجن.

كانت تحاول الدخول إلى باحة هيئة الإعلام الخارجي،

لكن بعض الحواجز الترابية أربكت مشيتها فبدت وكأنها تتمايل... «قصيدةً تمشي على الأرض».

كانت خطواتها موقعة كأنها موسيقى. كان واضحا أنها استشعرت أن هناك من ينظر إليها، فاستمرأت المشية التي اكتشفت جاذبيتها فجأة فجعلت تبالغ في توقيع حركاتها، حتى إنه يخيل إليك أنها فنان اكتشف فجأة لحنا عذباً بعد طول مراس.

ثم مرت أمام سيارتنا واختفت كأنها حلم.

كان الموقف لافتاً بالنسبة لنا، فالرجل أخبرنا أن له عشرين حفيدا، ثم إن فارق السن والحالة النفسية بيننا وبينه جعلت تعليقاته لافتة وطريفة. لكننا أوّلناها بأن الرجل كريم، لذلك كان يحاول التخفيف عنّا عندما استشعر أننا قد نكون في طريق عودتنا للمعتقل من جديد.

(٢١)

بدأنا نلف شوارع طرابلس، وبعد عدة دقائق شعرنا بأن المخوف اقترب، فالسيارة التي نسير خلفها تُغذّ في اتجاه السجن الذي منه نُشِرْنا قبل ساعات. مضت عدة دقائق ثم وقفت السيارة أمام الجدران الصامتة العالية، وقفنا أمام السجن المفتوح التابع للاستخبارات قرب مركز طرابلس الطبي.

شعرنا كأن جبالا من الغم وقعت على رؤوسنا، فالعودة إلى السجن أصعب ـ فيما يبدو ـ من ولوجه بادئ الأمر، لقد ذقنا طعم الحرية ورأينا دنيا الناس.

لماذا أذاقونا طعم الحرية إذن؟

لماذا أذاقونا طعم ذلك المعبود السحري الذي من أجله انتفضت ليبيا كلها؟

نزلنا من السيارة وتقدمنا صامتين كأننا نمشي في موكب جنائزي...

جدران كئيبة تواري وراءَ صمتها آلاف القصص والعذابات والأحلام المجهضة..

التفتُّ فرأيتُ أوجه المخبرين...، أوجهاً كالحة ترهقها قترة..

تقدم الحارس المتشح ببندقية كلاشنكوف وفتح باب السجن.

رمقت الساحة التي تتوسط السجن/ المقر الأمني، فرأيت نفس الصورة التي بسببها احترق البوعزيزي، وهرم الشيخ التونسي، وطارد شبابُ بنغازي الموتَ في مظنته أمام كتيبة الفضيل بوعمر.

نفس الصورة التي أرهقت المخيال العربي بيسارييه وليبرالييه وإسلامييه، نفس الصورة التي جعلت ثكالى العرب أغزر دموعا من ثكالى بني الدنيا.

نفس الصورة التي جعلت اليتيمة العربية أعمق جرحا من يتيمات كل الدنيا.

«الشارع المهجور والقتلى وأقبية المياهْ

والريحُ.. والدم والمداخن والهوام

من سطوة الإرهاب تزحف في الوحول

والأصدقاء الميتون من المصانع والحقول

كمياه نهر هائج يتدفقون...

ويهتفون بموت سفاكي الدماء

وسقوط صناع الظلام

والشارع المهجور

والباب المضاء مواربٌ، دام يواجهه قتيل
والشارع المهجور تذرعه الكلاب
وفصائل الجند المدجج بالسلاح
قف مكانك أيها الوغد اللئيم
باسم النظام
ويهر آخر: أيها النذل اللئيم
من أنت ومن تكون؟ أيها النذل اللئيم![1]

إنها نفس الصورة التي جعلت قناة الجزيرة تقرر تغطية ما يجري في ليبيا رغم العوائق.

وسط نظرات الحرس وقفنا، ودخل التليسي المكتب الذي تسلمنا منه أماناتنا في الصباح، وسمعنا أصواتا ترتفع كأن نقاشا يحتدم. ثم خرج الرجل بغير الوجه الذي دخل به، وقال بطريقة سريعة وعابرة كأنه لا يريد مواجهتنا بالحقيقة المرة:

- يقولون إن عليكم الانتظار، لكنكم ستخرجون خلال ساعات، وانصرف.

بعد قليل جاء عيسى فهمس:

- ياه..!، يا لك من سعادة منقوصة!، رجعتم!

ثم تقدمت مجموعة من العسكر طالبين منا ترك كل

---

(١) من قصيدة «الباب المضاء» لعبد الوهاب البياتي.

أماناتنا، وصحبنا اثنان منهم في اتجاه الطابق العلوي، حيث زنزانتنا غير المأسوف عليها.

بدا المجمع الدائري موحشا كأنه خال من أي حياة، رغم اكتظاظه بالمساجين، فالأبواب الرمادية موصدة بأقفال غليظة، حتى بدى المكان كأنه مقبرة مرعبة ذات طوابق.

كان ذلك قبل العصر بقليل.

دخلنا الزنزانة بوجوه كئيبة وقلوب حزينة، لم نأخذ معنا ملابسنا التي كانت بصحبتنا لاقتناعنا بأن مقامنا لن يطول، وبعد صلاة المغرب بقليل سمعنا الأبواب تفتح، أو تخلع على الأصح.

دخل علينا عسكريان يتطاير الشر من عيونهما، وقفا بصمت ثم قال أحدهما مهددا:

- نريد الهواتف التي معكم، لا نريد أن نعاملكم بقسوة، لذلك عليكم أن تتطوعوا وتسلموا لنا الهواتف.

- ليست معنا أي هواتف!

تقدم أحدهما وبدأ يفتشنا فرداً فرداً بشكل دقيق، ولم يعثر طبعاً على أي وسيلة للاتصال.

كان واضحا أن سبب التفتيش هو أن موضوعنا عاد إلى الإعلام بقوة بسبب إشاعة الإفراج عنا، ثم اختفائنا فجأة. جلسنا وقتا لا بأس به نضرب أخماسا بأسداس، محاولين فهم ما جرى. ضجت زنزانتنا بأسئلة من قبيل: لماذا أفرجوا عنا ولماذا أعادوا اعتقالنا؟ هل هناك صراع أجنحة داخل نظام العقيد المعقد؟

هل أعادونا حقا كي نعرض على النائب العام؟، أم إن ذاك مجرد ادعاء بارد؟، ثم لماذا يرسلوننا إلى النائب العام إذا كانوا يفكرون في الإفراج عنا؟

لعل السبب الوحيد في إرسالنا إلى النائب العام هو أنهم عزموا على دخول معركة مع قناة الجزيرة نحن وسيلتها؟

هل سنقف أمام القضاء الليبي لتبدأ سلسلة محاكمات طويلة عديمة المعنى؟، كانت كل الاحتمالات تدور بأذهاننا ونحن جلوس بين أربعة جدران. وتحولت تجربتنا مع الحرية التي استمرت عدة ساعات إلى ذكرى!

إلى مجرد حلم بدا واختفى لمحَ الطرفِ للرائي!، هل خرجنا فعلا ورأينا ما رأينا، أم إن الإقامة بين الجدران الصامتة عدة أسابيع جعلتنا نتخيل أشياء غير حقيقية!

بعد عدة ساعات من الانتظار المتوثب والدهشة الحيرى طلبنا مقابلة البُحتر، لكننا لم نتلق ردا، بعد العشاء بقليل ترامى إلى أسماعنا صوت عيسى قادما يقرع الأرض بنعليه ويقتلعهما اقتلاعا. دخل كعادته ماشياً، موزعاً نظراته، متفحصاً الزنزانة كأنه يدخلها أول مرة.

ـ الدنيا مقلوبة عليكم!

قالها عيسى وهو يسند ذراعه اليمنى على السرير الشاغر، بينما يحاول إخراج سيجارة من جيبه الأيسر.

واصل حديثه وهو يشعل سيجارته:

ـ الدنيا مقلوبة عليكم لأنكم اتصلتم بأهليكم وأبلغتموهم أنه أفرج عنكم، ثم اختفيتم فجأة.

ثم بادر عمار سائلا:

ـ لماذا أفرجوا عنا ثم أعادونا إلى السجن؟

لكن عيسى رد بأنه لا يدري.

رغم كل الافتراضات التي حاولنا من خلالها تفسير سلوك الأمن الليبي، فإننا لم نفلح في فهم لماذا أفرج عنا وأعيد اعتقالنا، لذلك كان من الأسلم لنا أن نريح أعصابنا ونعود إلى سيرتنا الأولى.

بعد صلاة العشاء، كان لطفي يزحف راجعا إلى سريره متمتما:

ـ دعني أقترب من الهاتف لأتصل بمحمد النيجري.

أخبر لطفي محمد نور النيجري بكل ما حصل ثم قطع الاتصال، ورجعنا إلى سالف عهدنا، إذ سهرنا تلك الليلة كما نسهر كل ليلة إلى منتصف الليل، منفسين عن أنفسنا بأحاديث من الماضي.

بعد أيام، وبينا كنا جالسين وقت صلاة الظهر إذ سمعنا الأبواب تفتح.

دخل عيسى وعسكري آخر، تقدم عيسى وبيده كيس أسود والتفت إلى لطفي قائلا:

ـ أمك تدعي لك! أمك تدعي لك!

همهم لطفي مشدوها:

ـ ماذا.. ماذا هناك؟

تدخل العسكري الآخر مقاطعا:

ـ البس ملابسك يا راجل وتفضل معنا.

كنا في حالة صعبة، فلم نعرف هل نفرح أم نحزن، هل هو ذاهب إلى الإفراج والحرية، أم إلى النائب العام، أم إلى مكان آخر؟، مشكلة هؤلاء هي أنهم يحرمونك حتى من نبأ الحرية!

التفت إلي لطفي مرتبكا وهو يربط حذاءه قائلا:

ـ أنا لست مطمئنا يا أحمد.

وقفنا وودعنا «رفيق الزنزانة» بحرارة، ثم اقترب منه عيسى ووضع الكيس الأسود على عينيه واقتاده خارج الزنزانة، مغلقاً الباب وراءه بقوة.

(٢٢)

كان الليل قد جَنّ في عاصمة بلاد الملثمين، فبدتْ الحركة هادئة في كل الشوارع المحيطة بالقصر الرئاسي القابع وسط نواكشوط. كانت الحركة كذلك هادئة داخل القصر إلا من بعض الحرس الداخلي الجالسين عند البوابة الشرقية متبادلين أطراف الحديث، لكن رجلا متوسط القامة، قمحي اللون، حليق اللحية، موفور الشارب، ذا نظرات مرتبكة، كان يجلس وسط إحدى غرف القصر.

كان الرئيس الموريتاني محمد ولد عبد العزيز مشغولا بمطالعة الصحف بعد يوم حافل بالعمل. وبينا هو غارقٌ في ركام الصحف الذي بين يديه، إذ دخل عليه مدير ديوانه ـ يومها ـ شياخ ولد اعْلِ. دخل مدير الديوان الغرفة ماشيا كأنه يهرول قافزا أو متدحرجا، فقامته القصيرة، وشعره الطويل، وقسماته الفضولية، تجعل طريقته في المشي لافتة كأنه يتكفّأ. مد شياخ الهاتف لولد عبد العزيز قائلا بهدوء:

ـ السيد الرئيس..، القذافي على الهاتف يريد الحديث إليكم.

التقط ولد عبد العزيز الهاتف من يد مدير مكتبه بسرعة ـ دون أن ينظر إليه ـ وقال:

ـ آلو..، الأخ القائد..، كيف الحال؟

ـ بخير..، كيف أنتم وكيف أهلنا في موريتانيا؟

ـ بخير..

ـ هناك مبادرة إفريقية لحل الأزمة، وأنا أريدك أن تبذل جهدك لإنجاحها بما أنك رئيسها.

ـ نعم، نحن نبذل كل ما في وسعنا.

ـ أريدك أن ترمي بثقلك لإنجاحها، فالثقة التي بيننا تجعلني أطمئن لأي قرار قد تخرج به، ثم إن بيننا من المودة والعهد ما أنت به عليم.

(يحفظ التاريخ أن القذافي تدخل أثناء الأزمة السياسية التي عاشتها موريتانيا بعد انقلاب الرئيس محمد ولد عبد العزيز على الرئيس المدني المنتخب سيدي ولد الشيخ عبد الله في ٦ أغسطس عام ٢٠٠٨، وأن تدخله يومها كان لصالح ولد عبد العزيز، الأمر الذي جعل العلاقة دائمة الدفء بين الرجلين).

رد ولد عبد العزيز قائلا بثقة:

ـ اطمئن..، لكن هناك أمرا آخر أود أن أحدثك فيه، أنتم لم تفرجوا بعدُ عن المواطن الموريتاني المعتقل لديكم، مراسل الجزيرة أحمد فال.

ـ هل أنت جاد؟، أما زال معتقلا؟، ما كنت أعرف أصلا أن من بين ذلك الفريق موريتاني...، أو كنت أحسب أنه

أفرج عنه. لكن لا عليك، سيسافر معكم في نفس الطائرة عندما تأتون هنا..، وهذا وعد مني.

* * *

كانت أسئلة مقلقة عن مصير لطفي تتراقص في ذهني، وأنا مشغول بغسل ملابسي وتنظيف الحمام. وبينا أنا منهمك في غسل أحد الأقمصة الشتوية بعيد صلاة العشاء، إذ دخل عيسى بطريقته المعتادة.

خلع الأقفال بسرعة، ومشى بسرعة، ووقف بين أيدينا بسرعة، حتى ليُخيل إليك أن الأرض انشقت عنه، ولم يتجاوز كل الأبواب التي يأخذ فتحُها من غيره عادةً الكثيرَ من الوقت والجهد. قال عيسى وهو يلتفت وراءه:

ـ صاحبكم وصل لرأس جدير!

قالها ثم أخرج هاتفه النقال وأرانا صورة لطفي متحدثاً بصوت متهدج بين أبيه وأخيه. كانت لحظة مفعمة بالسعادة.

لطفي الذي كان يفترش هذا الفراش المغبر، وينام معنا على هذه الأسرة الحديدية، ويؤذيه خرط مزاليج الزنزانات كما يؤذينا، سيبيت الليلة على فراش وثير ثملاً بطعم الحرية، سيبيت قرب أمه التي ظنت أنها لن تراه!، تُرى ما هو شعوره وشعورها؟، هل بكت عندما رأته؟، وكيف احتضنته؟، وهل قرّعته على حفره أخاديد من الدمع في وجنتيْها؟

ثم ما هو شعور لطفي الآن بعد أن نُشِر بعد مواتٍ؟، إنه يستطيع أن يستيقظ متى شاء، ويذهب إلى الشارع متى شاء،

ويدخل إلى أي مكتبة أو مسجد متى شاء. كان التفكير في مصير لطفي يعيد لنا الأمل ويملؤنا حبورا.

في يوم ٩ من إبريل كنت أنا وعمار جالسيْن بعد صلاة العصر، فدخل عيسى وبيده رزمة المفاتيح التي تتقدمه عادة، لكنه دخل مبتسما وعيناه ترقصان بخبر:

ـ عمار.. تفضل لتتحدث مع أهلك على الهاتف.

لم يصدق عمار بداية، فسأل عيسى عما إن كان جادا؟، فرد بالإيجاب.

اقتاد عيسى عمارا بعد أن عصب عينيه، بينما بقيت في الزنزانة أفكر في طبيعة ما يجري. بعد نصف ساعة عاد عمار ودخل الزنزانة وهو ممتقع اللون خائف.

بادرته سائلا:

ـ ما الخطب؟، أوَلم يسمحوا لك بالاتصال كما ادعوا؟

ـ نعم سمحوا بالاتصال وتحدثت مع زوجي، وقالت إن مسؤولا ليبياً رفيعا في طريقه إلى النرويج للبت في أمر الإفراج عني، وأكدت أن كل شيء يسير في طريق الإفراج عنا.

ـ إذن لماذا أنت مضطرب الأطراف، ملتاع الفؤاد، ما دام الأمر كذلك؟

ـ لأني لا أفهم لماذا سمحوا لي بذلك، أخاف أن يكونوا سمحوا لي بذلك من باب تطييب خاطر السجين قبل الإقدام على شر، ولماذا أنا بالذات؟، لماذا لم يسمحوا

لك أنت مثلا؟، سمحوا لي أنا لأني من النرويج وهي عضو في الناتو الذي قيل لنا إنه يقصف ليبيا!

ضحكتُ ملء شدقيّ، محاولا أن أشرح لصديقي أنه يبالغ في التشاؤم، فلماذا يحاول تحويل دلالة الأمر إلى ضدها؟، وفي المساء بعد صلاة المغرب عاد عيسى.

دخل مبتسما ابتسامته الماكرة، محملقا فينا قائلا:

ـ من منكما يريد الذهاب إلى أهله؟، فرددت مداعبا:

ـ كلنا ذاك الرجل!

ـ أحمد، عليك أن تتجهز للرحيل.

وماذا عن زميلي؟، ثم إلى أين أنا ذاهب؟

ـ لا أدري، هكذا أمر العميد!، أنا أنفذ فقط.

وقفت غير مدرك لما يجري، وكنت محزونا لأنني سأترك عمارا ورائي، سأترك رفيقي الذي عايشته العسر واليسر، ودُفنت وإياه ولطفي في زنازين القذافي...، سأتركه ورائي دون أن أعرف له مصيرا، كانت لحظة صعبة تعانقنا فيها طويلا.

جاء أحد الحراس وبيده دفتر، طالبا مني التوقيع على تسلم أمانتي. بعد ذلك تقدم عيسى ولف خرقة سوداء على عينيّ وسحبني وراءه، ما إن مشيت عدة خطوات حتى اعترضتنا مجموعة من العسكر وسلموا إليّ أمانتي. في هذه الأثناء طلب منهم عيسى أن يسمحوا لي بعدّ المبلغ المالي للتأكد من أنه كامل، لكن أحد الحراس صاح به وتشابكا،

مما أعطاني فكرة عن أن صراعا على الدولار قد نشب، ولم أكن في حالة نفسية تسمح لي بالتدقيق في الدولارات!

سحبني عيسى ورهطه في اتجاه الساحة العامة للمعتقل، حيث كانت هناك سيارة تنتظر. فتح عيسى الباب، فسمعت أصواتا جديدة على أذني قادمة من داخل السيارة، جاءني صوت من هناك يقول:

ـ لا تنزع العصابة عن عينيك حتى نخرج.

وما إن اعتدلت في المقاعد الخلفية حتى أحسست بفخامة السيارة، كما اتضح لي أني الوحيد في المقعد الخلفي، وأن هناك رجلين يجلسان في المقدمة، تحركنا في اتجاه الباب الرئيسي، وما إن خرجت السيارة منه حتى سمعت حركة الشارع بوضوح، بادرني الرجل الجالس خلف مقود السيارة قائلا:

ـ بإمكانك نزع الغطاء، نود تهنئتك بالحرية، نحن زميلاك من هيئة الإعلام الخارجي، أنا علي راغب الترهوني.

رددت ببرودة:

ـ حياكم الله.

ـ أهلا بك في عالم الحرية، ونتمنى أن تكون تجربة الاعتقال ليست بذاك السوء!

ـ لا بأس والحمد لله.

كان الوقت ما بين المغرب والعشاء، فبدت إضاءة الشوارع جميلة أخاذة، بينما انقلب الصوت الطبيعي لحركة

الحياة في الشارع موسيقى محببة إلى النفس، بعد الجدران الصامتة، وخلع المزاليج، وطقطقة أقدام الجند.

بينما كان خيالي شارداً متملياً روعة الإضاءة، ومتلقياً نسمات الربيع من نافذة السيارة نصف المفتوحة، التفت إلي علي الترهوني وقال:

ـ سنتوقف هنا في انتظار من سيأتي بنقود لنشتري لك بها بعض الأشياء،

رفعت نافذة السيارة بيمناي قائلا:

ـ لا حاجة بي إلى شيء، ثم إن لدي ما يكفي من النقد لشراء ما أحتاجه.

استدار الترهوني ملتفتا إلي وهو يعدل جلسته في المقعد الأمامي:

ـ لا لا، عيب يا راجل..، علينا أن نضيّفك على الأقل تعويضا عن كل ما واجهته من تعب أثناء فترة الاحتجاز.

ـ لكن لدي عشرة آلاف دولار نقدا ـ طبعا قبل أن أكتشف أن الحراس سرقوا نصفها تقريبا ـ ولا حاجة بي إلى شيء.

أثناء الأخذ والرد، توقفت سيارة فارهة على بعد خطوات منا على الطريق الرئيس، فترجل الترهوني باتجاهها وعاد بظرف فيه نقود.

طوت السيارة شوارع طرابلس ـ التي بدت هادئة وطبيعية ـ ما يقارب ربع ساعة، ثم توقفت أمام محل لبيع الملابس.

نزلنا ثلاثتنا ودخلنا إلى المحل، وبدأ الترهوني إقناعي

من جديد بضرورة أخذ ملابس. أثناء الأخذ والرد قال لي وهو يمر يده اليسرى على جانب فكه الأيمن:

ـ على الأقل ينبغي أن تلبس لعلك ترى رئيس بلادك، إذ إن هناك وفدا إفريقياً آتيا للوساطة غدا، وهو برئاسة الرئيس الموريتاني.

ما إن قالها حتى فهمت الإشارة بشكل جيد.

الرئيس الموريتاني آتٍ ليصطحبني معه، فالقذافي في محنة ويبحث عن نقاط قوة، كما أن الرئيس الموريتاني أيضا ـ بجهده المشكور ـ يبحث عن مواقف داخلية، بدأ سيناريو الإفراج يتشكل في ذهني بشكل واضح.

أثناء اختيارنا للملابس وبعض أدوات النظافة، التفت الترهوني إلى البائع سائلا:

ـ هل تعرف هذا الرجل؟

ـ الوجه مش غريب!

ـ هذا مراسل الجزيرة.

ـ آه..، الذي كان معتقلا، ليش أنتم في الجزيرة تشوهون الحقائق..؟

وانبرى صاحب المحل يشتم الجزيرة ويفترسني بأسئلة كثيرة، لكن الترهوني قاطعه بصرامة قائلا:

ـ لا لا..، هذا ليس الوقت المناسب لهذا العتب..!!

كان واضحا أن الترهوني مكلف بترك انطباع طيب لديّ ساعاتٍ قبل الإفراج عني.

بعد عدة دقائق ركبنا السيارة فاخترقت بنا أجواء طرابلس نحو عشرين دقيقة. كنت متوترا ولا أعرف إلى أين أنا ذاهب، هل أنا في طريقي إلى الفندق أم إلى السفارة الموريتانية؟، أم ماذا؟

لكن حبل التفكير في هذه الجزئيات قطعه صوت الترهوني قائلا:

- نحن في طريقنا إلى الفندق، إنه فندق خمس نجوم...

- ما اسم الفندق؟

- والله لا أذكر اسمه، لكنه ممتاز.

ففهمت تماما أنه ليس فندقا، بل مخدعا تابعا للاستخبارات الليبية لا فندقاً طبيعيا.

بعد لحظات توقفنا أمام مكان أشبه بالفيلا فنزل الترهوني وأخذت شنطتي ودخلنا.

كان المدخل يشي بأن «الفندق» غير بريء، كان لون المدخل رماديا ومرتفعا ولا يوجد عليه اسم أو علامة، اقترب الترهوني من الباب وضغط على منبه فجاء صوت من الداخل، أجابه الترهوني بطريقة سريعة شبه مشفرة فأشرع الباب.

دخلنا وتلقانا شاب ثلاثيني، فحمل شنطتي وحياني باسمي. صعدنا درجا واحدا فوجدنا أنفسنا وسط فيلا في غاية الأناقة والفخامة، تقدم الترهوني وفتح إحدى الغرف وأضاء المصباح، ثم بادرني قائلا:

ـ أليست جميلة؟ أتمنى أن تعجبك.

ـ فعلا، إنها جميلة وأنيقة!

بدت الغرفة ذات الألوان الذهبية أمام ناظري آية فنية وقعت فجأة من الجنان. لم أصدق أني سأبيت على هذا السرير الوثير، مندسا بين الأغطية الأنيقة والروائح الفواحة، بعد كل ما تعودت عليه خلال الأسابيع الماضية التي سلختُها بين جدران السجون.

(٢٣)

تسمّرتُ عند عتبة الغرفة هنيهة مثل إنسان بدائي قادم من الغابة، أو درويش على أعتاب مزار تهيباً لهذا الجمال والجلال. أثناء انبهاري استأذن الترهوني وانصرف. وما إن دخلت حتى تقدم الشاب وحياني قائلا:

- أنا هنا لخدمتك، فإذا احتجت أي شيء فكلمني..، ثم إننا نسهر في الغرفة الموالية للباب، وأهلا بك إن أردت السهر معنا بعد أن تستريح.

شكرته وأغلقت الباب.

ما إن أغلقت الباب ومشيت ثلاث خطوات داخل الغرفة، حتى انشقت الأرض فجأة عن شبح مروع!

كان قمحيَّ اللون، مرهقَ النظرات، ثائرَ الشعر، طويلَ الأنف معكوفَهُ. خُيّل إليّ عندما لمحته أنه أحد ضحايا مجاعات القرن الإفريقي...، لكنه شبح أليف!، لقد رأيت شبيهه آخر مرة في غرفة الضيافة بنالوت قبل أكثر من شهر.

إذ كنا قد حرمنا من كل شيء خلال الأسابيع الخمسة، حتى من مرآة نرى فيها أنفسنا بشكل طبيعي، فمرآتنا في

زنزانتا الأخيرة عبارة عن قطعة من الحديد صغيرة الحجم انتزعناها من الحمام، لا نرى فيها إلا جزءاً من الوجه غير واضح المعالم.

قضيت ليلة هادئة بعد أن أخذت حماما ساخنا، واندسستُ بين الأغطية الأنيقة فوق سرير وثير، إلا أن التفكير في وضع زميليّ عمار الحمدان وكامل التلوع ـ الذي انقطعت عنا أخباره منذ الأسبوع الأول ـ كان سكينا تندس في خاصرتي كلما حاولت الاستمتاع بعالمي الجديد.

في صباح اليوم التالي بعد تناول الإفطار، جاء الحارس ليخبرني أن لدي زائرا. لبست ملابسي وتبعت الحارس فاقتادني إلى غرفة أنيقة مصاقبة للمدخل، لأجد داخلها شخصا ينتظرني.

بدا ستينيا، أبيض البشرة، مرسل الشعر، هادئ النظرات، مرتديا قناع الزكانة والركانة. بادرني بلهجة هادئة:

ـ أهلا سيد أحمد..، لقد انتظرتُك البارحة كي أسلم عليك، لكنك تأخرت فاضطررت إلى الذهاب.

ثم واصل حديثه دون أن يقدم لي نفسه..

ـ أتمنى أن تكون أمورك بخير، وأن يكون من اعتقلك عاملك باحترام.

قالها بصوت عميق قوي واضح النبرات.لم تكن نبرات الرجل غريبة علي، فتفرّستُه لكني جزمت بأني لم أره قط. ثم واصل حديثه ـ وهو يعدل ربطة عنقه ـ قائلا:

ـ أهم شيء أن لا تكون قد تعرضت لسوء معاملة كبير..،

ففي النهاية أنت تعرف ظروف البلاد التي قبض عليك فيها..، فهل تعرضت لتعذيب منظم؟

ـ لا، لم أتعرض لتعذيب منظم والحمد لله.

ـ هذا هو المهم..، اسمع يا أحمد، الرئيس الموريتاني سيأتي اليوم وسترافقه إلى بلادك، وسيأتي سفيركم لزيارتك، لكن قبل كل ذلك، هل أنت بحاجة إلى أي شيء؟

في هذه اللحظة ـ وقبل أن أجيبه ـ تذكرت أين أعرف صوته، لقد كان رئيس فريق التحقيق الذي جاء في اليوم الثاني من اعتقالي لاستجوابي، إنه هو دون شك، بنبرته القوية وصوته العميق.

لكنني تجاهلت ذلك، موحيا له بأني لم أتعرف عليه، فرددت بهدوء متذكرا صوته قارعا طبلة أذني وأنا مغمض العينين جالسا بين يديه قبل أسابيع:

ـ لا أحتاج إلى شيء، أشكرك كل الشكر.

ثم خاطفني حديثا عاما وعاد كل منا من حيث أتى.

بعد يوم هادئ في فيلا تابعة للاستخبارات الليبية في مكان قريب من الساحة الخضراء، بدأ النوم يتسلل إلى جفوني. كانت الساعة تشير إلى العاشرة مساء، وكنت لا أعرف متى سيفرج عني، فقررت أن أنام.

بعد ذلك بساعتين، وبينا أنا بين اليقظة والنوم، إذ أيقظني قرع خفيف على الباب. قفزت من فوق السرير الوثير وفتحت الباب، فانتصب أمامي رجل طويل القامة، يتدلى مسدس على فخذه الأيمن. بادرني قائلا:

ـ هل أنت أحمد؟

ـ نعم.

ـ جهز نفسك للخروج، فهناك شخص من السفارة الموريتانية ينتظرك في الأسفل!

ها قد جاءت اللحظة التي حلمت بها طويلا.

قفزت لألملم الملابس المتسخة التي عندي، وتلك التي أعطانيها رجال المخابرات الليلة الماضية، ولم تمر ثوان حتى كنت جاهزا للخروج.

عاد العسكري وأخذني معه إلى الأسفل، مشى أمامي ثم انحرف يمينا عند مدخل المبنى، فلمحت رجلا أقرب إلى القصر، قمحي اللون، لا تخطئ العين سماته الموريتانية، جالسا في الغرفة التي يجلس فيها الحراس. ما إن لمحني مقتربا حتى قفز من مكانه متهللا:

ـ الحمد لله على السلامة!، أنا المستشار في السفارة الموريتانية طالبْنا ولد مامِّين.

ـ سلمك الله، وأهلا بك يا أخي.

ـ أتمنى أن تكون بخير، سنتحرك الآن في اتجاه الفندق لنلتحق بالوفد الرئاسي.

أثناء ذلك تقدم الشابان المسؤولان عن حراسة الفيلا، وسلما علي وودعاني، لكن الأخير منهما نبس في أذني قائلا:

ـ التلفزيون الليبي سيكون في انتظارك عند مدخل الفندق، ولا تنس أنك ما زلت على التراب الليبي!

ابتلع رجل الاستخبارات الحروف الأخيرة وهو يغمز بعينه اليمنى، محاولا إرسال رسالة كانت واضحة في ذهني، فما زدت على أن ابتسمت وقلت:

- مرحباً بهم.

بدأنا نمشي تجاه الباب الرئيسي، أنا والمستشار وسائق السفارة، فشعرت بسعادة غامرة وأنا أرى بشائر الحرية تقترب.

ركبنا سيارة السفارة، وطوينا الأرض في اتجاه الفندق الذي ينزل فيه الوفد الموريتاني. ما إن دارت السيارة حتى رأيت الساحة الخضراء قريبة جدا من مكان الفيلا التي كنت فيها.

كم تمنيت قبل شهر من الآن أن أحدث العالم من هذه الساحة بأن الشعب الليبي قد نال حريته!

بدت الساحة الخضراء شبه خالية من الناس، إلا من مجموعة لا تتجاوز العشرات تعسكر ناظرة إلى الكاميرا المطلة من السرايْ الأحمر (مكان الإدارة العثمانية تاريخيا) التي تظهر صورها عادة على التلفزيون الليبي بشكل دائم، دليلا على أن الليبيين ما زالوا متشبثين بحكم القذافي.

(ولعل قصة الساحة الخضراء تجسد طبيعة الأنظمة السياسية التي تعاقبت على طرابلس.

فقد ظهرت الساحة أول ما ظهرت كأحد أهم الميادين الرئيسية لمدينة طرابلس في عشرينيات القرن الماضي باسم «ساحة إيطاليا»، وبعد الاستقلال تحولت إلى «ميدان الشهداء»، لكن ما إن جاء العقيد القذافي بشعاره «الأخضر» حتى انتُزِعت الساحة من الشهداء وأصبحت «الساحة

الخضراء»، ثم دخلها الثوار أثناء كتابة هذه الأسطر فأصبحت «ساحة الشهداء» من جديد!).

بدأ المستشار يحكي لي عن التطورات الدولية سائلا إياه بحرقة، وبعد حوالي عشر دقائق كنا في بهو الفندق الذي يقيم فيه الوفد الرئاسي.

كان فريق من القناة الليبية في انتظاري، فأخذوني إلى ركن من أركان الفندق، وأجروا معي مقابلة تمحورت أسئلتها حول الوضع الجاري في ليبيا، وما رأيته خلال مشاهداتي فيها. أصر محاوري على أن أنتقد قطر والجزيرة، وأصررت على أن لا أفعل. ورغم كل المحاولات فقد خرجت المقابلة بصفة أرى أنها كانت جيدة ـ بتوفيق الله ـ وبثت على القناة الليبية.

بعد ذلك دخلنا الجناح المخصص للوفد الموريتاني الذي ما إن رآني أفرادُه حتى استقبلوني بحرارة، ممطرين إياي بأسئلة عن ظروف الاعتقال، محاولين الاطمئنان على صحتي.

بدأت أسألهم بتلهف عن كل شي، عن قصة اعتقالنا وكيف أعلن عنها ومتى؟، وعن الوضع في مصر وهل مسار الثورة فيها على ما يرام؟، وعن تونس وعن الثورتيْن السورية واليمنية!

لكنّ بلْسمَ ذلك المساء كان السفير الموريتاني في ليبيا محمد الأمين ولد خطري الذي كان في قمة الأخوة والطِّيبة والود.

ثم قام طبيب الرئيس الخاص ـ بمبادرة شخصية منه ـ بفحصي سريرياً بشكل كامل، ثم طمأنني بأن صحتي طيبة.

مضى الليل إلا أقله، وقضيت آخر ليلة لي في طرابلس، ثم أقلعت طائرتنا صباحا في اتجاه موريتانيا مرورا ببنغازي فالجزائر العاصمة.

(٢٤)

كان البيت المتواضع في منطقة دار النعيم بنواكشوط يشهد حركة دائبة منذ الساعات الأولى من صباح ١١ إبريل ٢٠١١.

فجموع المهنئين القادمة من جميع جنبات العاصمة تدخل وتخرج. كانت عائشة منشغلة باستقبال الزوار وتوديعهم، بينما تنشغل أختاي بخدمة الضيوف والاستعداد لزيارة المزيد من المهنئين.

كانت السعادة الغامرة مرتسمة على كل محيا، وكانت ابتسامة الحبور لا تفارق الوجوه بعد أسابيع من الحزن وتوقع الأسوأ داخل هذا البيت الذي أصبح معروفا في هذا الجزء من المدينة باسم «دار الناس إللِّ حاكمْ القذافي ولدهم»!

كانت عائشة لا تفارقها المسبحة، كأنها تتشبث بها تشبثا، مواصلة حمد الله والثناء عليه. تستقبل وتصافح وفي يدها المسبحة، وتودع وفي يديها المسبحة، وتعمل وفي يدها المسبحة.

بعد برهة من إقلاعنا من الجزائر العاصمة نظرتُ من

نافذة الطائرة فرأيت الأفق غاصا بالغيوم المنبسطة. بدت المزن المنداحة في الفضاء أشبه بأمل يتراءى من بعيد، كنت أرقبها مستشعرا عظمة الحرية، تلك الكلمة السحرية التي تترد على شفاه الجدات والأطفال في الوطن العربي هذه الأيام، ما بين مرافئ المحيط وموانئ الخليج.

تلك الكلمة التي أصبحت الأمهات في سوريا يرددنها كما يردد الدرويش طلاسمه بين يديْ شيخه، بعد عقود من الظلم والقهر والاستبداد.

ذلك المبدأ الذي بدأ العالم العربي يطلبه بصدور عارية، بعد أن حرمه الاستبداد منه قرونا مديدة.

ذلك المبدأ الذي لولا الإيمان بأنه شرط من شروط عودة الأمة إلى موقع الشهادة على الناس لما فعلت ما فعلته.

كل ذلك من أجلكِ أنتِ.. أيتها الحرية!

«على الغابة، على الصحراء،

على صدى طفولتي

على كل الصفحات البيضاء

حجارة كًانت أو دماً

ورقةً أو رماداً

أكتب اسمك.

على بُركة الشمس الآسنة..

على بحيرة القمر المتألق..

على كل لهفة فجر

على الجبال الرعناء

على مزلاج بابي

على جباه رفاقي

على ملاجئي الخربة

على جدران صخري

وحتى فوق الصمت

أكتب اسمك.

على عتاب بلا رغبة

على عزلة عارية

على مخاطرة خفية

على أمل بلا ذكرى

على خطوات الموت

أكتب اسمك.

وبقوة الكلمة... أبدأ حياتي ثانية. لقد ولدت لأعرفك ولأحبك.

ولأسميك أيتها الحرية»[١].

---

(١) قصيدة **الحرية** للشاعر الفرنسي بول إلوار (١٨٩٥- ١٩٥٢) الذي قتله النازيون في السجن.

(٢٥)

أفقتُ على طاقم الطائرة معلنا: «سنبدأ بعد قليل الهبوط التدريجي في اتجاه نواكشوط».

بدأت الأرض الصحراوية الممتدة تتراءى لي شيئا فشيئا. لم أر سهولا خضلة من نافذة الطائرة، ولا ناطحات سحاب أخاذة، لكن الصحراء الجرداء ذكرتني بمعاني الحرية والانطلاق، وارتباط الإنسان بمنبته.

كانت الطائرة تقترب من نواكشوط من جهة الشمال، فكنت أنظر إلى صحراء تِيرِسْ متخيلا صورة محمد بن الطُّلْبة اليعقوبي الشنقيطي ساريا مهتديا بالأنجم، حراً طليقاً، يرتل على مسامع الكون:

أقول لراعي الذوْدِ بين شُلَيْشِلٍ
وضبةَ، والعينان تنهملانِ
أيا راعيَ الذود الهجائنِ قفْ معي
سقاك حبيٌّ ذو أجش يمان!
أسائل عن حي الشقيقة إنني
وإياك يا راعي لَمُسْتَئِلاني!

كان يجلس إلى جنبي رئيس تحرير صحيفة **الحرية** الموريتانية الناطقة بالفرنسية محمد فال ولد عمير، التفت إليه قائلاً:

ـ هذه مرابع محمد بن الطلبة اليعقوبي، ربك وحده يعلم كم قطعها ممتطيا ناجيةً في ليل بهيم، بعيدا عن عالم المستبدين والسلطات المركزية.

ـ نعم، هو كذلك! لقد زرت هذه الأماكن قبل فترة مع أحد الأدباء، وكان كلما مر على كثيب أنشدني عنه شعرا، لقد عرفتْ هذه البلاد الكثير من الشعراء، وما أحلى المشتى والمتربع فيها.

أثناء ذلك بدأت الطائرة تقترب من أرضية المطار.

لقد هبطتُ على أر ض الوطن!

ما إن أخرجت رأسي من الطائرة حتى لمحت الصحافيين وكاميراتهم تغطي المكان.

بدأت أتعرف على الأوجه المزدحمة لاستقبالي وجهاً وجهاً...

كنت ألمح وجوها طال العهد بها خرجت رغم بعد العهد بيننا، لكنها أتت ـ والدمع يغلبها ـ لتستقبلني. لمحت وجوه زملاء وأصدقاء وأخوات وأهل وأحبة وآخرين لا أعرفهم...

حاولت السلام على الجميع لأرد الجميل لمن أحبوا ودعوْا، وعاشوا المحنة بتفاصيلها ربما أكثر مما عشتها...

كانت أوجه تعلو وأخرى تسفل وسط الزحام، بينما تتخطى الأرجل آخرين سجدوا شكرا لله!

لن أنسى سيدة كانت في الوفد الرسمي لاستقبال رئيس الجمهورية، لكنها لم تصبر فخالفت البروتوكول الرسمي وتركت مكانها مهرولة لتسلم علي!

حتى رجال الشرطة والباعة المتجولون والمتسولون الذين كانوا في أروقة المطار أهرعوا للسلام والاطمئنان عليّ. كانت لوحة إنسانية يصعب على العين الإنسانية أن تتملّاها بحياد...

كنت أرقب الوجوه...

لكنني لم أرهما.. أمي وأبي.

كنت أخشى فقط أن يظهر أمامي فجأة ذلك الشيخ الوقور الذي يتهادى في عقده الثامن، أطال الله بقاءه!

كيف سأسلم عليه، وكيف ستكون نظراته إلي؟، هل هي نظرات العتب أم الشفقة أم مجرد نظرات قارصة، فيها عطف الأبوة مشوبا بشيء من عتاب؟

ما أجل الأمر الذي دعاه إلى أن يترك بيته لينتظرني في يوم قائظ وسط هذه الجموع!

أنا أعلم منه قناع شدة يرتديه ليداري به قلبا عطوفا ونفسا كريمة، تذهب حسرات إذا شِيكَ أيٌّ من أهله وذويه..، فهل سأتماسك إذا رأيته؟، أو بالأحرى.. هل سيتماسك هو؟، وأنى لي التماسك إذا ما انهار أمامي؟

كانت هذه المشاعر تتناوشني تناوش السهام، إلى أن اقترب مني أحد الأصدقاء هامسا:

- الوالدة والوالد قررا انتظارك في البيت، سنمر على نقابة الصحافيين لاستقبالك رسميا، ثم بعد ذلك تتحرك في اتجاه البيت.

مررت بنقابة الصحافيين الموريتانيين التي يرأسها الزميل الرائع الحسين ولد مَدُّو، وشكرتهم على الجهود الاستثنائية التي بذلوها من أجل الإفراج عني، ثم استأذنتهم متوجها إلى البيت.

كان الأخ الكريم بابا ولد سيدي ولد امّوْ (زوج أختي مريم) هو من يسوق السيارة التي تقلني، وتواكبنا مجموعة من السيارات تسير خلفنا يتقدمها خالاي محمد الأمين وعبد الله ابنا عمار، وسط أجواء من التزمير والتصفيق والزغاريد.

ألقيت نظرة على باب المنزل الذي تنتظرني أمي داخله، كان الباب مزدحما بالزوار والمهنئين والفضوليين.

لكنني دخلت...

لمحتها جالسة في بهو البيت...

هي هي...، بابتسامتها الحنون، ونظراتها المفعمة حبا ومشاعر..، ظلت جالسة! فاقتربتُ...

كنت أقترب منها كما يقترب العطشان من الشطآن غِبّ أسابيع من التيه في صحراء قاحلة. دلفت نحوها كما يدلف العابد الهرِم إلى ديْر مقدس!

مشيت متهيبا... خطوة.. خطوة!

ثم انحنيت عليها مقبلا رأسها... «أمّنا.. كيف الحال؟»

نظرتْ إليّ ولم تنبس ببنت شفة.

لكن عينيها كانتا تصرخان بكل المعاني التي تعجز اللغة

عن تجسيدها. كانت عيناها تتحدثان بلغة لا تستطيع قواميس الدنيا فك طلاسمها...

كانت عيناها.. عينيْ أم تكتحل برؤية ابنها بعد أن وُوري التراب..، ثم انتفض من رمسه فجأة وعاد إلى البيت ذات مساء..

كانت تنظر إلي بصمت!

فـآلـت بـنـا الأحـوال آخـرَ وقـفـةٍ
إلـى كـلـمـاتٍ.. مـا لـهـنّ حـروفُ[1].

كانت تُردد بصرها..، تتلمسني.. هل أنا هو؟، تشم أطرافي..، تفرك يديّ بين يديْها..

ثم ارتميت في حضنها...، وعدت طفلا غريرا..!

حقا... «ليس في العالم وسادة أنعم من حضن الأم»[2].

أحمد فال بن معلوم الدين بن حَمَّ
الدوحة، ١/٩/٢٠١١

---

(١) من أبيات مستملحة للشاعر الموريتاني العلامة محمد بن أحمد يوره، وهي:

أتـمـسـك دمعَ الـعـيـنِ وهـو ذروفُ — وتـامـنُ مـكـرَ الـبـيـنِ وهـو مـخـوفُ
تكلم منا البعض والبعض ساكتٌ — غـداة افـتـرقـنـا.. والـوداع صـنـوفُ
فـآلـت بـنـا الأحـوال آخـر وقـفـةٍ — إلـى كـلـمـات.. مـا لـهـن حـروفُ
حلفت يمينا لست فيها بحانثٍ — وإني بعقبى الحانثين عروف!
لئن وقف الدمعُ الذي كان جارياً — لـثـمّ أمـورٌ.. مـا لـهـن وقـوف!

(٢) يُروى أن العبارة لشاعر الإنجليز النحرير وليام شكسبير.

- أفرج عن الزميل عمار الحمدان أربعة أيام بعد الإفراج عني.

- تمكن كامل التلوع من الهرب من الأراضي الليبية أواسط يونيو ٢٠١١.

- كما أفرج في نفس الفترة عن كل من بلقسام نصيرة ومنير بسيم، أما علاء الزاوي (صلاح أبو عوبة) فقد بقي في سجن بو سليم ينتظر الإعدام حتى حرره الثوار يوم دخلوهم طرابلس في أغسطس ٢٠١١.

هذا الكتاب

عندما التفت يميناً فرأيت كامل التلوع، الطبيب المهذب، وبجنبه الصحافي اللامع لطفي المسعودي وكلاهما رافع يديْه تحت رحمة رجالٍ بأيديهم أسلحة يتفوهون بعبارات نابية.. قلت في نفسي: "إي وربي.. لقد ألقي القبض علينا!".

- لا تتحركوا.. أيديكم إلى الأعلى.. لا تحرك يديك أيها الكلب.. اسكت!.. دور!.. دور!

وجدتني واقفاً مرفوع اليدين ووجهي إلى الحائط، لكني كنت أفكر في شيء واحد. كيف سنوصل الخبر لمدير التخطيط الإخباري بقناة الجزيرة؟

كنت أنظر إلى هاتف نوكيا صغير قرب قدمي، فحاولت دحرجته برجلي، لكن عسكرياً فظاً اختطفه في لمح البصر صائحاً:

- لا تتحرك!.. يا خائن!.. يا جرذ!

كنا نسمع عن تصرفات الكتائب تجاه الليبيين.. أما الآن فها نحن أولاءِ ... أسرى بيد كتائب القذافي!

الثمن: ١٠ دولارات
أو مايعادلها

الشبكة العربية للأبحاث والنشر
بيروت - لبنان
هاتف: ٧٣٩٨٧٧ (١-٩٦١) - ٢٤٧٩٤٧ (٧١-٩٦١)
E-mail: info@arabiyanetwork.com


ISBN 978-9953-533-82-7
9 789953 533827